مقدمات لفقه بيئي إسلامي

إعادة الاكتشاف – اقتفاء الأثر – فرص وتحديات خطاب إسلامي بيئي

بقلم: علي عبد المنعم المصري

Abstark

Tulisan ini menyarankan bahwa Fiqh Al bi'ah *dalam Islam selalu ada, baik pada level Alkitab & Assunnah maupun dalam warisan peradabah umat Islam. Fiqih tersebut selalu berdiri atas dua pilar utama yaitu* Fiqhul Kitab & Sunnah *dan* Fiqhul Waki'i *(fiqih realita) yang merupakan turunan dari fiqhul kitab wa sunnah itu sendiri. Akan tetapi dengan terganggunya lalu terhentinya perdebaran peradaban umat, maka susunan megah fiqih tersebut ikut tertutupi. Bertentangan dengan banyak pendapat yang pesemis, tulisan ini memandang dilemma ekologik yang dihadapi Faqih Muslim sebagai 'kesempatan emas' yang ditutupi oleh 'tantangan besar'. Kesempatan emas seperti ini dapat dinyatakan melalui menata ulang rumah bersama manusia dan di pusatnya umat islam. Hal itu dapat dicapai melalu investasi dalam konsensus (muafakat) umat manusia atas persoalan ekologi tersebut yang meliputi segala aspek kehidupan mereka, dan dari sisi lain menginvestasi dalam metode Al Quran yang begitu padat, komplek, dan terintegrasi dalam menyikapi persoalan ekologi. Investasi semacam ini dapat, antara lain tetapi utama, mengambil bentuk wacana Islami mengenai ekologi yang berlandaskan pada dua pendekatan yang di muka.*

Abstract

This paper proposes that Fiqh Albi'ah (Islamic jurisprudence of ecological issues) in Islam was always there in both holy texts and practice levels. However, it was the disturbed then stopped pulsation of the Islamic civilization that led to cover such great heritage of Fiqh Albi'ah. Contrary to many of prevailing pessimistic attitudes, this paper looks at the environmental dilemma experienced by the Muslim Faqih, as a 'golden chance' that lies behind 'great challenges'. Such a 'golden chance' could be realized by rearranging the man common house, with the Islamic one in its heart, through making use of the international consensus over that gatherer issue and its causes. Such rearranging of the man and Islamic common house could be reached, among others but mainly, through reestablishing an Islamic environmental discourse based on combination of two main elements. First, an epistemological element derived from Al-Wahyyi (Quran) and the Prophecy Heritage, which explains the state of environment, the position of man toward it, and values that form their relation between them and between them and The Creator. The second element is a factual one based on in-depth understanding for the environmental reality with its all interlacements and modifications

أ. مقدمة

بداية أعبر عن امتناني لإعطائي هذه الفرصة للكتابة إلى دوريتكم الموقرة، تلك الدورية التي ينعقد عليها أمل كبير في إصلاح العصب المركزي لمجتمعاتنا المعاصرة عامة والإسلامية خاصة، ألا وهو البحث العلمي، في بلد هو الأكبر سكاناً وسط إخوانه من البلاد الإسلامية الأخرى. وبشكل خاص أعبر عن امتناني لإعطائي فرصة للكتابة في موضوع هو الآخر بات يشكل مركزاً عصبياً لا يكاد يخلو من آثاره نبضة قلب في عالمنا الرحيب المستمر في الاقتراب من بعضه الآخر، ألا وهو موضوع البيئة. فإلى الأمام دائماً في النهوض بالبحث العلمي الإسلامي في أكبر بلد إسلامي، وإلى ما حملته جعبة قلمي اليوم؛ نقرأ واقعنا لنفقهه، ونرجع إلى ديننا الحنيف ليمنحنا الحكمة اللازمة للتعامل مع هذا الواقع العصي على التفكيك، وأخيراً نشابك عزائمنا وأيدينا عملاً على العمل بما فقهنا مستبصرين بتحديات عالمنا اليوم وفرصه، ومن قبلها مدركين لمواطن قوتنا وضعفنا في هذا السياق. والله أرجو أن يكون جهدي هذا لبنة في بناء؛ تحوطها أخواتها يشددن من أزرها ويقومن اعوجاجها.

هناك قضية مركزية في هذه الورقة ،سأدفع في هذا الجزء بأدلة تساندها، وهي أن الفقه البيئي الإسلامي كان دائماً هناك: في الكتاب، في السنة، وفي السلوك الحضاري الإسلامي. وأن هذا الحضور بمستوياته اللاحقة الذكر دائماً ما يملك صفة "جامعة" تشد إليها أغلب قضايا الفكر والممارسة الإسلاميين. وأن مهمة الفقيه الإسلامي المهتم بالبيئة ومشكلاتها اليوم أن يعيد اكتشاف هذا الحضور ويفجر الطاقات الكامنة في الخطاب والممارسة الإسلاميين حول البيئة في الواقع الإسلامي الراكد. وعندما أطلق تقريري بأنه كان هناك دائماً أعني أنه كان على مستويين رئيسين من الحضور؛ المستوى الفلسفي بثلاثة مستويات فرعية هي حضور في الانطولوجيا (نظرية الوجود) ، حضور في الابستمولوجيا (نظرية المعرفة)، وحضور في الاكسيولوجيا (نظرية القيم) الإسلاميين. والمستوى الرئيس الثاني هو الحضور في العمل الإسلامي وأنموذجه المتألق في القرون الأولى.

في المستوى الفلسفي تتبوأ قضية البيئة حقاً مكانة في التصور الإسلامي للوجود الدنيوي والأخروي؛ فالبيئة هي معراج الإنسان نحو إدراك الخالق، والبيئة هي دور من أدوار الوجود الذي يتناوب عليه الحضور الإنساني ذاته. ومن الناحية المعرفية البيئة تدرك بالعقل

والتفكر والسمع والبصر والسير نحو الشهادة بتوحيد العلي القدير وهي المسألة الأكبر في الابستمولوجيا الإسلامية. وعلى مستوى أكسيولوجي تحتل قيم العدل والتوسط والإعمار والإصلاح والتراحم ويناقضها قيم الظلم والإسراف والجور والإفساد مكانة مركزية في التعامل مع قضية البيئة. بينما يحفل مستوى التعامل بنماذج فريدة رسمت للتعامل مع البيئة خطوطاً عامة وشرعت لها اتجاهات حنيفية ضماناً للحفاظ عليها وتزكيتها؛ حتى أنه إذا قامت الساعة وفي يد أحد المسلمين فسيلة (شتلة نخلة) فواجب عليه غرسها[1]

ولدى محاولتي التفقه مبدئياً في موضوع البيئة وما يناظرها في الأدبيات الإنجليزية تحت عنوان Environment & Ecology، ألفيت نفسي تزداد يقيناً مع كل حرف تأتي عليه عيناي أن ثمة ميراث من الكتاب والسنة يناظر المفهومين ويزيد. فلئن كانت محاور مفهوم Environment المركزية هي اعتبار الوسط أو المحيط كوحدة تحليل رئيسة عند النظر في أحوال بني آدم من عمران وانهيار، وأن هذا الوسط أو المحيط في حال تفاعل دائم فيما بين عناصره وفيما بينه وبين بني الإنسان، وأن هذا التفاعل يسعى دوماً نحو حالة من الاتزان، وأن أي خلل يصيب حالة الاتزان تلك، وإن كان في عنصر بسيط من عناصر هذا الوسط، يتسبب في آثار سلبية متسلسلة قد تفضي لنتائج كارثية على المدى الطويل. أكتب لأشهد أنه إن كانت تلك هي المحاور المركزية لمفهوم Environment فإن الكتاب والسنة يزودانا بمفاهيم التسخير والقدر والميزان وظهور الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس. وإذا كان مفهوم Ecology يدور حول أهمية دراسة تلك الحالات من توازن وديناميه وتشابك في العلاقات واعتمادية متبادلة بين العناصر البيئية المختلفة دارسة علمية، فإن الكتاب والسنة يأخذان بأنظار وقلوب وأيدي المسلمين نحو السير في الأرض لينظروا كيف بدأ الخلق، ونحو التفكر والذكر قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، وذلك كله بغرض الشهادة والاستسلام لما يقره الكتاب والسنة من "الحق" و "الميزان" في كافة عمليات الخلق وربوبية الله وألوهيته له، وما ينتج عن هذه الشهادة والاستسلام من تثوير للإنماط السلوكية نحو أنماط أكثر ائتلافاً مع وسطها البيئي حتى أنها تنظر إلى الجبال بحب وألفة قائلة "إن

---

[1] حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا عفر حدثنا حماد حدثنا هشام بن زيد قال: -سمعت أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قامت الساعة وبيد احدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل. رواه أحمد في مسنده. موقع روح الإسلام (www.islamspirit.com) ، موسوعة الحديث النبوي الشريف: الصحاح والسنن والمسانيد، الإصدار الثاني.

والتفكر والسمع والبصر والسير نحو الشهادة بتوحيد العلي القدير وهي المسألة الأكبر في الابستمولوجيا الإسلامية. وعلى مستوى أكسيولوجي تحتل قيم العدل والتوسط والإعمار والإصلاح والتراحم ويناقضها قيم الظلم والإسراف والجور والإفساد مكانة مركزية في التعامل مع قضية البيئة. بينما يحفل مستوى التعامل بنماذج فريدة رسمت للتعامل مع البيئة خطوطاً عامة وشرعت لها اتجاهات حنيفية ضماناً للحفاظ عليها وتزكيتها؛ حتى أنه إذا قامت الساعة وفي يد أحد المسلمين فسيلة (شتلة نخلة) فواجب عليه غرسها[1]

ولدى محاولتي التفقه مبدئياً في موضوع البيئة وما يناظرها في الأدبيات الإنجليزية تحت عنوان Environment & Ecology، ألفيت نفسي تزداد يقيناً مع كل حرف تأتي عليه عيناي أن ثمة ميراث من الكتاب والسنة يناظر المفهومين ويزيد. فلئن كانت محاور مفهوم Environment المركزية هي اعتبار الوسط أو المحيط كوحدة تحليل رئيسة عند النظر في أحوال بني آدم من عمران وانهيار، وأن هذا الوسط أو المحيط في حال تفاعل دائم فيما بين عناصره وفيما بينه وبين بني الإنسان، وأن هذا التفاعل يسعى دوماً نحو حالة من الاتزان، وأن أي خلل يصيب حالة الاتزان تلك، وإن كان في عنصر بسيط من عناصر هذا الوسط، يتسبب في آثار سلبية متسلسلة قد تفضي لنتائج كارثية على المدى الطويل. أكتب لأشهد أنه إن كانت تلك هي المحاور المركزية لمفهوم Environment فإن الكتاب والسنة يزودانا بمفاهيم التسخير والقدر والميزان وظهور الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس. وإذا كان مفهوم Ecology يدور حول أهمية دراسة تلك الحالات من توازن وديناميه وتشابك في العلاقات واعتمادية متبادلة بين العناصر البيئية المختلفة دارسة علمية، فإن الكتاب والسنة يأخذان بأنظار وقلوب وأيدي المسلمين نحو السير في الأرض لينظروا كيف بدأ الخلق، ونحو التفكر والذكر قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، وذلك كله بغرض الشهادة والاستسلام لما يقره الكتاب والسنة من "الحق" و "الميزان" في كافة عمليات الخلق وربوبية الله وألوهيته له، وما ينتج عن هذه الشهادة والاستسلام من تنوير للإنماط السلوكية نحو أنماط أكثر ائتلافاً مع وسطها البيئي حتى أنها تنظر إلى الجبال بحب وألفة قائلة "إن

---

[1] حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا بهز حدثنا حماد حدثنا هشام بن زيد قال: سمعت أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قامت الساعة وبيد احدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل. رواه أحمد في مسنده. موقع روح الإسلام (www.islamspirit.com) ، موسوعة الحديث النبوي الشريف: الصحاح والسنن والمسانيد، الإصدار الثاني.

الثلاثة جميعها، عاكسة الواقع المتداخل المتكامل العصي على التفكيك في دلالة قوية على تطابق وصف من خلق لخلقه. إن محاولتي المتواضعة هذه ستركز في البحث في مصدر رئيس وأولي هو الذكر المحفوظ (القرآن الكريم)، ولولا ضيق المقام لتوسعت إلى السنة المطهرة؛ فهي المبين للقرآن وأنموذجه العملي.

يجدر بالذكر أن الأسلوب القرآني، وهو أسلوب العلي الخالق عز وجل، هو نفس أسلوب البيئة في كونه عصي على التفكيك. فعندما نورد أن ثمة مستويات من الحضور وخصائص لهذا الحضور، فإننا نفعل ذلك تيسيراً للتحليل وليس إمساكاً بحقيقة الأسلوب القرآني الفريد في شموليته وصعوبة تفكيكه، إذ هو كما الواقع الذي هو خلق صاحب القرآن سبحانه. والله المعين.

أ) من سورة الأنعام:

١) "إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧) وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) "

الوحدة البيئية الرئيسة هنا هي البيئة الحيوانية (الدواب والطيور)، ومن العرض القرآني السابق نلاحظ التالي:

أولا، على مستوى نظرية الوجود: هي نظامية في تصنيفها، غائية في سيرها نحو هدفها (الحشر). *ثانيا*، على مستوى نظرية المعرفة: يجمع العرض بين مصدرين رئيسين من مصادر المعرفة هما السمع (الحواس) والوحي (الكتاب). موضحاً أن تلك البيئة هي آية من الله تدفع لاستجابة الذين يسمعون، وأن كثيراً من الناس لا يعلمون بهذه الآيات، وأن العلم بها هو طريق النجاة من الموات. ويرد بهذه الآيات على من يريد آيات خارقات، ليقول أن الآيات موجودة فعلاً لكن العيب في المتلقي. *ثالثا*، ثم هي تلمس المستوى الأكسيولوجي من طرف خفي عبر التنبيه إلى الحشر وأنه سيكون بهدف إقرار قيمة العدالة الإلهية. *رابعا*، وعلى مستوى الخاصية الجامعة نجدها تجمع إليها قضية الكتاب وكونه محيط بكل شئ، كما تجمع اليها قضية المعاد وأنه سيشمل كل شئ.

٢) إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)

الوحدات البيئية التي يستعرضها القرآن هنا هي البيئات النباتية، الفلكية، الإنسانية، دورة الإنبات في اعتمادها على دورة المياه، ومنها نلاحظ التالي في إطار الخصائص الأربعة لقضية البيئة في المستوى الفلسفي الإسلامي القرآني:

الأول، البيئة النباتية ويغلب على العرض هنا الخاصية الجامعة، حتى أنه يتعسر علينا أن نميز بين ما قدمناه أنه خصائص أربع

أ. على مستوى أنطولوجي، تجمع إليها قضية الألوهية وفعل الخلق والإحياء والإماتة والتحويل بينهما، كما تجمع إليها تبدل البيئة بين أدوار الموت والحياة.

ب. وعلى مستوى ابستمولوجي توحي بالنظر وملاحظة الفروق كسبيل للوصول إلى الكلية الرئيسة في الابستمولوجيا الإسلامية وهي الشهادة.

ج. وعلى مستوى أكسيولوجي تجمع إليها قضية استنكار الكفر

الثاني، البيئة الفلكية

أ. على مستوى أنطولوجي تتضح طبيعتها الوظيفية في كونها في جانب منها مجعولة للسكن ولاشتقاق الحسابات ولكي يهتدى بها في الظلمات البرية والبحرية، كما يتضح جانب القوانين المسيرة لعلاقة أجزائها ببعضها في كونها مقدرة بطريقة عزيزة عليمة.

ب. تجمع إليها من صفات الله وأسمائه العزة والعزيز والعلم والعليم.

ج.وعلى مستوى ابستمولوجي هي آيات يلزم لإدراكها العلم بها. كما تجمع إليها الركن الرئيس الثاني في نظرية المعرفة الإسلامي وهو الكتاب المفصل.

د. ثم إنها ومن طرف خفي تلمس الجانب الأكسيولوجي عبر تزكيتها لقيمة العلم والعلماء في مقابل إنكار الكفر والانصراف عن هذه الآيات.

الثالث، البيئة الإنسانية

أ. على المستوى الأنطولوجي تبدت للوجود من نفس واحدة، ثم إنها من ذكر وأنثى (قال القرطبي:وأكثر أهل التفسير يقولون: المستقر ما كان في الرحم، والمستودع ما كان في الصلب)، ومن ثم تتبدى بيئة ما قبل الولادة في شكل بيئتين: المستقر والمستودع

ب. وعلى المستوى الابستمولوجي تجمع معها قضية تفصيل الكتاب وحتمية التفقه من جانب الإنسان في معراجه نحو الكلية الرئيسة في الابستمولوجيا الإسلامية وهي الإيمان.

ج. وهي تلمس أيضاً الجانب الأكسيولجي عبر تنويهها بقيمة التفقه في مقابل "تؤفكون" في الآية الأولى.

الرابع، دورة المياة في ترابطها بالبيئة النباتية

أ. على المستوى الأنطولوجي كونها مترابطة (إنزال الماء مرتبط بإنبات النبات)، كما أنها متنوعة في التصنيف من نخيل وجنات، متشابه وغير متشابه. ثم إنها متناظمة في التركيب.

ب. وعلى المستوى الابستمولوجي يرسي القرآن أهمية النظر في الآيات، وصولاً مرة أخرى لكلية الإيمان.

ج. مرة أخرى وعلى المستوى الأكسيولوجي يشد العرض القرآني لتلك البيئة إليه القيمة العليا للإيمان وهو ما لا يتأتى إلا باتباع الحق والاطمئنان إليه مع ترك الهوى.

ب) من سورة النحل:

١) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٤) وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ

وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨)

الوحدات البيئية التي يستعرضها القرآن هنا هي: الملكوت ككل، البيئة الإنسانية، البيئة الحيوانية، دورة النبات والرعي في ترابطها بدورة المياة، البيئة الفلكية، البيئة الأرضية، البيئة البحرية.

الأول، الملكوت ككل:

أ. على المستوى الانطولوجي: تجمع إليها قضية الخلق وكونه هادف (الحق)، كما تجمع إليها صفات المولى عز وجل من الغفران والرحمة.

ب. وعلى المستوى الابستمولوجي: تجمع إليها آليه التذكر ودورها في النظرية المعرفية الإسلامية، كما تجمع إليها آلية العد والإحصاء.

ج. وعلى المستوى الأكسيولوجي: نراها تنكر الشرك، وتستنكر المساواة بين الخلق والخالق.

ثم نراه يعود إلى قضية الملكوت ككل في الآيتين ١٧&١٨، وذلك بعد استعراض الأنظمة المترابطة داخله ووظائفها والقيم المتعلقة بها معرفياً وأكسيولوجياً؛ يعود إليها ليجعل منها قضية جامعة تشد إليها قضية الموقف الأخلاقي من الملكوت، وهو الموقف الذي يتأسس عليه الإسلام لله. تلك القضية الأخلاقية التي تتعلق بالسؤال التالي: "أفمن يخلق (بكل هذا الكمال الذي يصل لحد تكريم الإنسان أحياناً (كاعترافه بالحاجة إلى الزينة والمظهر اللائق) كمن لا

يخلق"؟ إنه يستثير عواطف الحياء ويستجيش عواطف الإحسان لمن أحسن إلينا. ولا يتوقف العود إلى قضية الملكوت ككل عند الحد الأنطولوجي فقط، بل نراه يتعداها أو يرجع الموقف الأخلاقي هذا إلى جذوره إذ يركز على أهمية فعل التذكر في سير العملية الابستمولوجية الإسلامية-(أفلا تذكرون؟).

الثاني، البيئة الإنسانية في ترابطها ببعضها

أ. على المستوى الانطولوجي تظهر الترابط بين الإنسان ومكونات البيئة الأخرى، كون الإنسان من نطفة (المستودع).

ب. وعلى مستوى أكسيولوجي تنكر قيم الخصام ونسيان الأصول وتجاهل الحقائق.

الثالث، البيئة الحيوانية:

أ. على المستوى الانطولوجي تثبت قضية الخلق، وخصوصية مكانة الإنسان في وسط الخليقة، كما أنها تظهر غائية الخلق ووظيفته من تحقيق المنافع للإنسان، سواء كانت منافع ضرورية كالأكل والدفء والتنقل أو كمالية كالجمال والزينة. ومن جهة أخرى تتحدث الآيات عن أن البيئة مفتوحة للتطور (يخلق مالا تعلمون). ثم هي تستصحب معها من صفات المولى عز وجل صفتي الرأفة والرحمة وهما من القوانين المنظمة لعلاقة تلك الوحدات البيئية بالإنسان. كما تثبت الآيات أنطولوجية هامة هي حرية الإنسان رغم إرادة الله الشاملة له ولبيئته.

ب. وعلى المستوى الأكسيولوجي، تظهر الآيات تلك الوحدة البيئية الحيوانية إذ تعين الإنسان على السير في مسالك الدنيا كمصدر من مصادر المناظرة مع قيم أخروية دينية هي هداية السير إلى طريق الله. وكون الناس مختلفين في هذا السير ما بين مهتد وجائر.

الرابع، دورة الإنبات والرعي في ارتباطه بدورة المياة:

أ. على المستوى الانطولوجي: تثبت فعل الله من كونه هو منزل المطر وأنه من وراء الأسباب جميعها، كما تظهر وحدتين أو نظامين بيئيين في ترابط هما نظام دورة المياة ونظام دورات الإنبات والرعي. كما توضح التنوع البديع في الأنظمة الفرعية من البيئة النباتية والرعوية.

ب. وعلى المستوى الابستمولوجي: تتبدى تلك البيئات بأنظمتها الفرعية البديعة المترابطة كآيات تشكل الميدان الذي تدور فيه نظرية المعرفة الإسلامية. كما يظهر النص هنا دور التفكر كمعراج هام نحو كليات المعرفة الإسلامية من شهادة وإيمان وغيرها.

ج. وعلى المستوى الأكسيولوجي، وفي مقابل الجور، تتأتى قيمة التفكر ككابح من كوابح الجور، وذلك عبر الثناء على المتفكرين.

الخامس، البيئة الفلكية:

أ. على المستوى الانطولوجي، هي مسخرة للإنسان بأمر الله

ب. وعلى مستوى ابستمولوجي، تأتي وظيفة العقل كسبيل من سبل إدراك البيئة.

ج. وعلى مستوى أكسيولجي، يظهر العقل كقيمة أيضاً وككابح من كوابح الجور.

ثم نراه يعود إليها في الآية ١٦ ليدخلها في وحدة تحليلية أخرى هي وحدة الهداية التي تجمعها هي والبيئة الأرضية (في النقطة التالية)؛ فإن كانت البيئة الأرضية بما تحويه من جبال وسبل وأنهار جعلت كي يهتدي بها الناس في البر ساعة إبصارهم لها جميعاً نهاراً، فإن النجوم قد جعلت كي يهتدى للطرق ليلاً.

السادس، البيئة الأرضية:

أ. على مستوى أنطولوجي نراها متنوعة الألوان في دلالة على تجاوز البيئة للضروريات الحياتية إلى الضروريات الجمالية، وكلها مسخرة للإنسان

ب. وعلى مستوى ابستمولوجي تأتي أهمية عملية التذكر

ج. وعلى مستوى أكسيولوجي تجمع الآيات إليها قيمة التذكر عبر مدحها غير المباشر للقوم المتذكرين

ثم يعود إليها في الآية ١٥ ليعيد للأذهان على مستوى أنطولوجي التنوع بين رواسي (وهي الجبال الشاهقة التي يغلب عليها الطبيعة الصلبة غالباً)، والأنهار(السائلة التي يغلب عليها الطبيعة الواطئة غالباً)، والسبل (الطرق الموصلة). ثم نراه على مستوى أبستمولوجي يؤكد على الاهتداء الذي لا يكون باختبار الظواهر المختلفة والمقارنة بينها وتصنيفها.

السابع، البيئة البحرية:

أ. على مستوى أنطولوجي يصورها القرآن مسخرة، كمصدر للحاجات الضرورية من أكل وتنقل وتجارة، وكمصدر للحاجات الجمالية كاستخراج اللآلي الثمينة منها للزينة.

ب. وعلى مستوى معرفي، يؤكد على أهمية "النظر/ الرؤية"

ج. وعلى مستوى أكسيولوجي يمتدح نمطين قيميين/سلوكيين هما الابتغاء من فضل الله والشكر

٢) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨)

٣) وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢)

الأول، على مستوى أنطولوجي، تتحدث الآيتين الفائتتين عن البيئة ككل (ما خلق الله من شئ)، في حال السجود المعبر عن الاستسلام لله الحكيم. كما تتحدث الآية الثانية عن الجهة التي لها (تعود الملكية إليها في شأن البيئة) ذلك الملكوت، إنه الله.

الثاني، وعلى مستوى ابستمولوجي، نرى الآية الأولى تدفع للرؤية كأحد الآليات المعرفية لاكتشاف استسلام البيئة ككل لله.

الثالث، كما أن الآية الثانية تركز على قيمة التقوى، التي دونها لن يكون للإنسان نصيب من الثبات على الحق الذي تدل عليه حقائق البيئة من حوله، إذ أن موقف التقوى هو الامتداد الطبيعي للموقف الأخلاقي من البيئة.

٢,١. الحضور البيئي في الممارسة الإسلامية

١,٢,١. الحضور البيئي عند النبي صلى الله عليه وسلم

أتابع تحت هذا العنوان الدفع بالأدلة على أن الفقه البيئي كان هناك دائماً في الإسلام، وذلك من خلال البحث في عنصر الممارسة الفعلية والتطبيق العملي للذكر الحكيم. إن عنصر الممارسة الفعلية ليتجلى أول ما يتجلى في سلوك النبي الكريم، الذي كان خلقه القرآن[٤]. وفيما

---

[٤] حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن زرارة عن سعد بن هشام قال سألت عائشة فقلت أخبريني عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: كان خلقه القرآن. رواه أحمد في مسنده. موقع أم الكتاب وموقع الدرر

يلي طرف من أنموذجه الأخلاقي صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق بالبيئة وفقهها؛ أستعرضه على مستويات ثلاثة: معرفي ودافعي وسلوكي. حيث يحمل تناولي لتلك المستويات الثلاثة افتراضاً رئيساً هو أنه إذا امتلك الإنسان معرفة إيجابية عن شئ ما فإن ذلك يسدفعه للتعرف الأعمق على هذا الشئ، وصولاً للسلوك الإيجابي تجاهه. فالمعرفي هو الصور الذهنية والحقائق المعرفية التي قالها النبي وتجعل من موضوع البيئة مركزاً لها. والدافعي هو أسلوبه صلى الله عليه وسلم في ترغيب الناس في أن يسلكوا سلوكيات إيجابية نحو البيئة عن طريق الربط بين الاحتياجات الإنسانية والفعل المرغوب فيه، بينما يجسد المستوى السلوكي نماذج من فعله الكريم تجاه البيئة.

- على المستوى المعرفي: كثيرة هي الأحاديث التي تحمل معاني صادقة نطق بها النبي عن الحقائق العلمية المتعلقة بالبيئة[٥]. لكني سأكتفي هنا بالكتابة عن مركب هام في المستوى المعرفي وهو مركب الصور الذهنية التي طرحها النبي عن التعامل مع البيئة. إن النبي يطرح دائماً الرؤية النظمية المتطابقة مع الواقع البيئي. نستطيع أن نرى ذلك في حديثين معروفين رواهما الصحابي الجليل النعمان بن بشير هما:
  - الحديث الذي رواه النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي قال مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان من في أسفلها إذا استقوا مروا على فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً و لم نؤد من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً[٦].
  - وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى[٧].

السنية في عمل مشترك (dorar@gawab.com & Info@omelketab.net) ، مكتبة الحديث الشريف وعلومه؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل.

[٥] يستطيع القارئ الكريم أن يرجع للمصادر التالية حين الحاجة:
- في بيئة ما قبل الولادة: الحديث السادس في الأربعين النووية
- في بيئة الإنسان الصحية: كتاب الطب النبوي لابن القيم

[٦] النووي في رياض الصالحين، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. موقع أم الكتاب، مرجع سبق ذكره

[٧] المرجع السابق، باب تعظيم حرمات المسلمين وبيان حقوقهم والشفقة عليهم ورحمتهم

إن تصويراً كالسابق للبيئة التي يعيش بها الإنسان وجمع قضية حدود الله وحقوق المؤمنين إليها من شأنه أن يعيد تنظيم المكون المعرفي في السلوك ليتماشى مع التصور النظمي الذي لا ينفصم فيه جزء عن الآخر، مبقياً الإنسان داخل حدود الله؛ وهي في نفس الوقت حدود الرحمة، حدود الحكمة، حدود العلم، حدود العزة، حدود الرأفة... حدود صفات الله عز وجل.

- على المستوى الدافعي: إن المستوى المعرفي الإيجابي المستند على الحقائق الواقعية يستلزم ربط تلك الحقائق بالحاجات الإنسانية، وهو الأمر الذي سيولد دافعاً نحو الفعل أو السلوك. وإذا تأملنا طرفاً من أحاديث النبي الكريم لوجدنا العديد من الموجات الدافعية التي يبث عليها النبي نصائحه للمسلمين؛ إنه يبث نصائحه على موجات:
  - الحاجة إلى المغفرة الإلهية (حدثنا إسماعيل: حدثني مالك، عن سمي مولى أبي بكر، عن أبي صالح السمان، عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (بينما رجل يمشي بطريق، اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها، فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه، فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له). قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجراً؟ فقال: (في كل ذات كبد رطبة أجر))[8]
  - الحاجة إلى الثواب(حدثنا أبو الوليد: حدثنا أبو عوانة، عن قتادة، عن أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما من مسلم غرس غرساً، فأكل منه إنسان أو دابة، إلا كان له صدقة)[9]
  - الخوف من عدم الشهادة له بالإيمان من جانب النبي (حدثنا عاصم بن علي: حدثنا ابن أبي ذئب، عن سعيد، عن أبي شريح: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن). قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: (الذي لا يأمن جاره بوائقه)).

---

[8] البخاري، في باب الأدب. موقع روح الإسلام، مرجع سبق ذكره
[9] المرجع السابق

- وعلى المستوى السلوكي: فحدث ولا حرج عن سلوكه صلى الله عليه وسلم في تعامله مع البيئة. فقد كان صلى الله عليه وسلم ، يُصغي للهرة الإناء ، فتشرب ثم يتوضأ ، بفضلها[١٠].

٢,٢,١. الحضور البيئي في الممارسة الحضارية الإسلامية:

- أدرك المسلمون منذ القدم أثر البيئة في حياة البشر وسلامتهم الصحية، و لم يكتفوا بذلك بل طبقوه في اختياراتهم عند تمصير المدن وسكنى المناطق، ويروي ابن قتيبة الدينوري نصاً في عيون الأخبار يبين فيه عدم سكنى العرب في المدائن وانتقالهم إلى البيئة الملائمة وهي الكوفة واتخاذهم لها دار إقامة يعود إلى سبب بيئي[١١]. ويرى الجاحظ أن فساد البيئة لا يؤثر فقط في فساد الجسم، بل يعمل على فساد الطباع[١٢].
- وقد عرف المسلمون أثر المناخ والموقع في الناحية الصحية، فقد قام السلطان العباسي عضد الدولة بالإفادة من موهبة الطبيب الرازي المشهور واستشاره في اختيار موضع لبناء البيمارستان العضدي في بغداد فذهب الرازي إلى نواح يطلب أصحها هواء وأطهرها جواً فعلق قطعة من اللحم في جهات مختلفة فالموضع الذي بقيت فيه قطعة اللحم أطول فترة دون أن تفسد فذلك هو المكان الصحي وهو المكان الذي اختاره لبناء البيمارستان العضدي[١٣].
- ويرجع ابن خلدون كثرة الموت أو الموتان كما عبر عنه في المقدمة إلى أسباب كثيرة منها المجاعات ووقوع الأوبئة، ويبين أن سبب ذلك يعود في الغالب إلى فساد الهواء لكثرة العمران ولكثرة ما يخالطه من الرطوبة والعفونات، ولهذا يقول فإنه من الحكمة أن

---

[١٠] محمد بن جميل زينو، قطوف من الشمائل المحمدية والأخلاق والآداب الإسلامية. موقع صيد الفوائد. www.saaid.net

[١١] عيون الأخبار (دون تاريخ نشر)، وزارة الثقافة السورية، ص ٢٣٩. في:
د.مصطفى العلواني (٢٠٠٦)، الإسلام والبيئة. مجلة التراث العربي-مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب-دمشق العدد ١٠١ www.awu-dam.org/trath/١٠١/turath١٠١-٠١٠.htm

[١٢] كتاب الحيوان للجاحظ ٢/ ٣٢. في : المرجع السابق

[١٣] رسائل فلسفية في الطب الروحاني - أبو بكر محمد زكريا الرازي - دار الإيمان الجديدة - بيروت ١٩٧٧. في: مصطفى العلواني (٢٠٠٦)، مرجع سبق ذكره

يباعد الإنسان بين المساكن حتى يتمكن الهواء من التموج ليذهب بما يحصل في الهواء من الفساد والعفن[١٤]

- ونظراً لأهمية نظافة مياه الشرب في صحة الناس فقد كان المحتسب في بغداد يخصص أمكنة للسائقين داخل النهر بعيدة عن الشط ومطارح الأوساخ ومجرى الحماميم ومواضع الدواب[١٥]
- ومن الجدير بالذكر في هذا المجال أن نشير إلى أثر تفريق الأموال في عمارة الإسلام وأهله يدخل تحت باب إعمار البيئة وإصلاح حالها. وفي ذلك أمر المأمون ابنه بدافع الإسلام أن يوزع ما توافر لديه في خزائنه على الناس ليعمروا الأرض ويوفروا الطعام ويصلحوا معايشهم، حسبما روى الطبري.[١٦]

ثانياً: اقتفاء الأثر

حين هممت بالكتابة حول هذا الموضوع بعد اطلاع واهتمام دام أكثر من عامين، وجدت نفسي متحيراً من أين أبدأ. وإنما يرجع هذا إلى الطبيعة الجامعة للموضوع. إن موضوع البيئة تتجمع فيه خيوط أغلب الأنشطة الحيوية والإنسانية في تضافر عجيب، لدرجة يصعب معها أن تفرد أحدها أو تعطيه الأسبقية على الآخرين. هذا.. وإذا أضفنا أننا نكتب عن موضوع البيئة لا لنستعرض أهم المعلومات وآخر الأخبار وأعمق التحليلات حوله فقط، إنما ل "نفقهه" على ضوء شرعنا الحنيف، وما لهذا الأخير أيضاً من عمق وترابط مع غيره من شؤون الحياة والممات وما بعد الممات؛ إذ يعرف عن شرعنا الحنيف أنه شرع للدين والدنيا، للفرد والمجتمع، للأمس واليوم. إذا أخذنا كل هذا في الاعتبار، فإن أفضل بداية رأيت أن أبدأ بما هي "اقتفاء لأثر" الفقه الإسلامي للبيئة الذي أسس له القرآن الكريم وجسده النبي الكريم وعضدته الممارسة الإسلامية الحضارية. إن اقتفاء الأثر هذا يتمثل في مجموعة مداخل تشكل مجتمعة ما أراه مظلات فكرية تظلل أي مهتم بالموضوع، وأعني بصفة "المظلية" هنا أن أي فقيه بيئي مسلم ولا ريب سيجد في

---

[١٤] مقدمة ابن خلدون، مطبعة مصر، القاهرة ط ثالثة. في: مصطفى العلواني (٢٠٠٦)، مرجع سبق ذكره

[١٥] مصطفى العلواني (٢٠٠٦)، مرجع سبق ذكره

[١٦] تاريخ الرسل والأمم والملوك: ٨/ ٥٧٧. في: مصطفى العلواني (٢٠٠٦)، مرجع سبق ذكره

إحداها أو فيها مجتمعة كليات تقي أفكاره واجتهاداته قيظ التشتت الفكري أو البدأ من الصفر في محاولته الاقتراب من "فقه البيئة".

١,٢. مظلة / مدخل فقه واقع الورطات البيئية (أو فقه واقع الطغيان في الميزان)

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [الروم ٤١]

وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ [الرحمن ٧و٨]

"أن الموجات الحارة والأعاصير وانتشار الإصابة بالملاريا ليست سوى النتيجة الظاهرة لارتفاع درجة حرارة الكرة الأرضية على صحة الإنسان"

توني مكمايكل، الأستاذ في الجامعة الوطنية في استراليا، نقلاً عن جريدة الحياة ١٢-١١-٢٠٠٦

"قال السائق الكازاخي كوبن: "لطالما سبحت هنا مرات ومرات.. كان منحنيًا بجسده على الكورنيش البراق الذي يفصل الطريق عن الشاطئ الرملي". اليوم، الشيء الوحيد الذي يذكر بهذا المصيف البحري الذي كان معمورًا، وجود بضعة هياكل صدئة ضخمة لمراكب تركت مهجورة على رمال الصحراء التي كانت ذات يوم.. بحرا."

أسامة القفاش، آرال قصة موت بحر، *www.islamonline.net*

أنهار بنجلاديش تأكل ضفافها، مصر.. العشوائية تغتال البيئة، العالم.. ينقرض من حولك، الاحتباس الحراري.. قنبلة موقوتة، الذوبان الكبير.. مستقبل الكرة الأرضية في خطر، امتنع عن التنفس.. حتى لا تموت!! بوش: الاحتباس الحراري وهم، دخان المطابخ يقتل ١٠٦ ملايين سنويا، في بنجلاديش.. شربة الماء بالزرنيخ

مقتطفات من صفحات البيئة وأخبارها على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)

"تعد أزمة البيئة منطلقا مناسبا لمحاولة فهم الكيفية التي استطاع بها تطور العلوم وتحول الأفكار-منذ قرون من الزمان-بتجريد إنسان الغرب من مركز ظل يتمتع به ... تاركاً إياه يتيما في مجتمع شهد إنجازات تكنولوجية وثراء ماديا لم يسبق لهما مثيل"

جان ماري بيلت، عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة

تدلنا تلك المقتطفات على ما يمكن تسميته بورطة بيئية يعيشها الإنسان حالياً. ولما كان مستقبل الجنس البشري يرتبط بشكل جوهري بموقفه من البيئة ومن ثم من أزمتها وورطته الحالية، فقد مثل ذلك مدخلاً هاماً حين هممنا بالتفقه في البيئة. إن الانطلاق من أرضية واقعية لا يعني واقعية "وقوعية" تبدأ من الوقائع المادية وتنتهي فيها، إنما هو انطلاق منها (من الوقائع) معتمدٌ على عتاد انطلاق عقيدي يعي مهمة الإنسان الاستخلافية وحدوده المتمثلة في سنن الله الكونية. إلا أن تقديم هذا المدخل تكمن أهميته في سد فراغ يغلب على الخطاب الإسلامي العام وهو فراغ "فقه الواقع".

وبغض النظر عن تلك المحاجات الشكلية، فإن ثمة أخطار حقيقية تتهدد البشرية في لحظتها الراهنة (وفي قلبها العالم الإسلامي). إن مثل تلك الأخطار أولى بأن يعيها الفقيه البيئي المسلم وتمثل مظلة تفكيرية تظلله حين محاولته "التفقه" بيئياً. إن مثل تلك الأخطار تمثل الأرضية التي سيلعب عليها الفقيه البيئي المسلم أهم أدواره في إعادة بناء سفينة نوح جديدة لتلك المليارات من البشر الجانحة نحو هاوية وهي تجهل في أحسن الظروف أو تتجاهل وتتعمد الجنوح في أسوئها. إن فقيهاً بيئياً مسلماً لا يعي هذه الأخطار ولا تمثل متغيراً رئيساً في "تفقهه" لما يحيط حوله مثله مثل من يحاول حرث الماء ويزيد على ذلك فيراهن على أن تنبت نخيلاً! إن إدراكاً حقيقياً من مصادر سليمة علمياً ومن خبرة مباشرة واحتكاك مع الحدث البيئي لهو الأرضية الخصبة التي سيتعهدها الفقيه المسلم بالعناية باذراً فيها حصيلة تزاوج وتخاصب حكمة وعدل ورحمة وميزان الله المنطوي في كتابه وسنة رسوله وبين خبرته الواقعية.

وفي محاولة منا لتقصي أبعاد الأزمة أو الورطة البيئية الحالية تابعنا أهم أخبار البيئة وتحليلات المختصين على موقعين هما من أهم المواقع العربية على الشبكة المعلومات الدولية، وذلك على مدار العامين الأخيرين ٢٠٠٥ و ٢٠٠٦. تابعنا تلك الأخبار والتحليلات على موقع *www.islamonline.net* وموقع *www.bbcarabic.com* . بالإضافة إلى متابعة جزئية لموقع *www.albayat.com* ولقد راعينا في اختيارنا أن تتنوع توجهات الموقعين وذلك لتقليل مقدار التحيز في صياغة الخبر وتحليل المسائل، فاخترنا أحد الموقعين ذا توجه إسلامي معاصر والآخر ذا توجه علمي موضوعي محايد (حسب ادعاء أصحاب كل طرف). وملحق بهذه المقالة قائمة بأهم هذه الأخبار والتحليلات.

فقه الواقع البيئي، وأعني به فقه ثلاث أنواع من المسائل هي فقه مظاهر هذا الواقع الدالة عليه، وفقه آثارها الآنية والمستقبلية، وفقه أسباب هذه المظاهر، وأخيراً فقه التعامل مع هذا الواقع. إن فقه المظاهر ليساعدنا على الفصل (ولو غير قاطع) بين الظاهرة محل الحديث وغيرها من الظواهر كما أنه يساعدنا على تحقيق فصل (ولو غير قاطع) بين حال الظاهرة وماضيها ومستقبلها. أما فقه الآثار فيقودنا إلى مستقبل الظاهرة ويحفزنا أو يبعدنا عن التعامل معها؛ فإن كانت الآثار ستمس متغيرات رئيسة ومصالح أساسية لنا، سواء سلباً أو إيجاباً، فإن التعامل مع الظاهرة يبدو حتماً. ويأتي فقه الأسباب وهو لب الفقه ليدلنا على ماضي الظاهرة وعلى ما ينبغي علينا التعامل معه إذا أردنا العلاج، وأخيراً يأتي فقه التعامل جامعاً خيوط الظاهرة كلها، ظواهرها ليعالجها، آثارها ليكبح السلبي ويحفز الإيجابي، أسبابها ليقضي على السلبي منها ويحفز الإيجابي. هذا، ويعد فقه الواقع البيئي هو المتغير الأهم في الفقه الإسلامي للبيئة، إلى جانب التغير الحضاري الذي لحق بالمسلمين والمجتمع البشري عامة، ومن هنا وجب أن يبذل يختص بمجهود أكبر من جانب الفقيه.

وبشكل عام يمكن القول أن الممارسة الإسلامية في موضوع البيئة لم تعرف أجواء مثل الأجواء التي نعيشها اليوم والتي نطلق عليها وصفة "الورطة البيئية"؛ فقد كان التعامل الإسلامي على مستوى الأداء الحضاري الراقي الحافل بأشكال الرأفة والاهتمام بالبيئة، ولذا تكاد تخلو الأدبيات الفقهية التراثية من عون نتزود به لحل مشكلة ورطتنا البيئية اليوم. إلا إن الفقه الإسلامي للبيئة على مستوى النص قد قدم أنموذجاً للتعامل مع البيئة في كل الظروف والأحوال عبر التعامل مع المتغيرات الرئيسة التي تحكمها هي والإنسان معاً. لقد قدم الإسلام أنموذجاً مثالياً؛ وصفاً وتسبيباً وتعاملاً مع البيئة حين سلامتها ونقائها، كما قدم أنموذجاً كذلك في حال خطورتها وتلوثها، راسماً مظاهر ومسببات وكيفية التعامل مع هذه الأوضاع. ومن ثم يصبح دور الفقيه المسلم المهتم بالبيئة اليوم هو إعادة اكتشاف نموذج الورطة البيئية في القرآن والسنة جنباً إلى جنب مع تنشيط النظر والسير والسمع والتفكر وإعمال العقل في الواقع البيئي الحالي، وهو الشئ المأمور به في الكتاب كما رأينا دوماً عند الحديث عن البيئة. وسيراً على هذا المنهاج سأحاول في القسم الحالي من المقالة أن أقدم للقارئ الجوانب الأساسية لواقع الورطة البيئية الحالي (مركزاً على المتغيرات الأساسية التي لن تكون بطبعها ذات جانب تفصيلي وقائعي)، ومن جهة

أخرى أقدم الرؤية القرآنية لمثل تلك الورطات، وكل هذا من منظور ثلاث نقاط رئيسة هي المظاهر ، في الأسباب، وفي كيفية التعامل مع الوطة البيئية الحالية، على حين يتم الحديث عن فقه الآثار ضمناً وتبعاً للسياق، والله المستعان.

١,١,٢. فقه المظاهر:

رغم أهمية هذا الجانب في فقه البيئة الإسلامي، إلا إنني لن أفصل فيه كثيراً لأنه هو الجانب الوحيد الذي يحظى دون غيره بتركيز أغلب الكتابات عن الموضوع[١٧]. وسأحاول تعديل وجهة النظر إلى موضوع المظاهر من موضوع مكتف بذاته إلى مجرد مدخل إلى وضع الأيدي على الأسباب الكامنة وراء المظاهر،-تلك الأسباب التي تستحق حقاً أن تفقه وأن ترجع إلى أصولها الحقة، حتى لا نقع في حبائل علاجات مسكنة دون علاجات طويلة الأجل. من أجل هذا سأكتفي بإطلالة سريعة على عناوين الأخبار البيئية التي تطالعنا بها وسائل الإعلام كل يوم، مقتصراً على عينة من تلك الأخبار من صفحة البيئة في موقع www.islamonline.net ، والمبينة في الجدول رقم ( ) أدناه، نحاول منها أن نضع أيدينا على أهم مظاهر الورطة البيئية الحالية.

يستطيع القارئ الكريم أن يستقرأ الجدول أدناه بعدد لا يحصى من الطرق مصنفاً مظاهر ما أسميه بالورطة البيئية بطرق شتى. وفيما يلي أقدم إحدى طرق التصنيف تلك مميزاً بين مستويين من مظاهر الورطة البيئية الحالية، مستوى أسميه مستوى الوعي بالورطة وهو ملئ إن شاء الله بالبشارات السعيدة على رغم كثير من العقبات التي تعترض طريقه. ومستوى آخر أدعوه مستوى الورطة الفعلي وهو كما سنرى يفوق مستوى الوعي في النذر السيئة مهدداً بطي صفحة الوجود البشري الحالي في بضع عشرات من السنين القادمة (بالحساب البشري).

---

[١٧] يستطيع القارئ الكريم، حين الحاجة، أن يرجع إلى المصادر الآتية للتعرف على تلك المظاهر بالتفصيل:

- صفحة البيئة في www.islamonline.net
- كلمة environment في موسوعة Encarta من إنتاج (٢٠٠٦) Microsoft Corporation
- مدخلة " The Environment ٢٠٠٤, Year in Review" في الموسوعة البريطانية (٢٠٠٦) Britannica
- محمد الشيرازي (٢٠٠٤)، الفقه (البيئة)، قم: دون دار نشر
- أ.د. محمد الدسوقي(٢٠٠٦)، حماية الشريعة للبيئة في حالة الحرب، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٤٩٣، شهر نوفمبر، الكويت: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية
- حسن عبد الفتاح (٢٠٠٦)، الإسلام وحماية البيئة النباتية، المرجع السابق

- **فقه مظاهر الوعي البيئي:** أستطيع هنا أن أميز بين نوعين من الوعي؛ وعي يقارب الحقيقة البيئية ويتفاعل معها سواء بعلاجات مسكنة أو علاجات حقة، ونوع آخر من الوعي أوسمه بالوعي الزائف الذي يحاول إما دفن رأسه في الرمال كافراً بالورطة البيئية أو مكابراً منكراً لحقيقتها.
  - يقف في صف النوع الأول أنصار الاتفاقيات والمعاهدات والمحادثات والدعوات التي تنادت وتتنادى للتعامل مع الورطة البيئية الحالية؛ بدءاً من مؤتمر فيينا في ١٩٧٥، مروراً بقمة الأرض في ريودي جانيرو ١٩٩٢، وبروتوكول كيوتو ١٩٩٧، وغيرها. كما يقف في صفها دعاة التدخل الديني في الأزمة، ومنها المبادرة الكريمة لمجلة ملة الإندونيسية.[١٨]
  - كما يقف في صف الوعي الثاني أنصار النيوليبرالية المتطرفة مثل جورج بوش الابن ورفضه بل اتهامه للطائفة الأولى من الواعين بالتوهم. كما يقف في هذا الصف أيضاً شركات التبغ وصغار المتاجرين بحرائق الغابات وقطع الأشجار في غابات كاليمنتان بإندونيسيا أو الأمازون في البرازيل.[١٩]

البراكين.. بديل لاتفاقية "كيوتو"! إفريقيا تعيش على حافة العطش

الاحتباس الحراري يؤجج صراعات المياه أنقذوا الأرض بالصيام عن الطاقة

إنقاذ اقتصاد أفريقيا.. القطن بدل التبغ حماية البيئة.. فريضة شرعية

نداء قومي للألمان: أسرفوا في المياه! بعد التسونامي.. الحياة البحرية تستغيث (حوار

---

[١٨] يستطيع القارئ الكريم، حين الحاجة، أن يطلع على المصادر التالية ليحيط بمظاهر الوعي الإيجابي حول الموضوع:

- Professor Dr. Farooq Hassan (٢٠٠٦), Islam: Environmental Protection, Presidential Address to the Pakistan Ecology Council at the Karachi Hall, Lahore High Court Bar Association, ٦ October, ٢٠٠٦, Lahore وذلك في موقع http://www.greaterdemocracy.org/archives/٠٠٠٥٠٧.html
- Ahmad Khoirul Fata (٢٠٠٦), Ekoteologi dan Fiqih Lingkungan, www.cakfata.multiply.com/journal/item/١١
- www.umy.ac.id/alumni/berita.php?id=٣٧٨ (٢٠٠٦), Peluang dan strategi penanganan lingkungan berbasis agama

[١٩] كما يستطيع القارئ الكريم، حين الحاجة، أن يطلع على المصادر التالية ليحيط بمظاهر الوعي الزائف حول الموضوع:

- إسلام أون لاين (٢٠٠٤) ، امريكا تتشبث بالألغام المضادة للأفراد، www.islamonline.net
- القسم العلمي في إسلام أون لاين (٢٠٠٤)، عالم بدون ألغام. أمريكا تقف ضده، المرجع السابق
- د. نادية العوضي (٢٠٠١)، بوش: الاحتباس الحراري وهم، المرجع السابق
- ----------، يوم للبيئة والعناد الأمريكي، المرجع السابق

حي)

قطرة مياه تحييك.. وقد تقتلك (ملف)

مؤتمر التغير المناخي.. تدشين لتجارة في جعبة التسونامي.. ألغام وتماسيح "الكربون"

حكاية الأوزون وثقبه

السياحة تمدد أكثر غابات اليابان قدما..

أنهار بنجلاديش تأكل ضفافها

دخان المطابخ.. يقتل ١٠٦ ملايين سنويا

أنياب الجدار.. تمزق البيئة الفلسطينية

الماء المكلور يقتل البكتيريا.. والبشر أيضًا

آرال.. قصة موت بحر

فلسطين.. لقمة العيش أهم من البيئة

أهوار العراق تسأل: من القاتل؟

لغم.. لكل ثلاثة مصريين

البحر.. يأكل غزة

أفتك أسلحة إسرائيل.. شربة ماء

ناقلات البترول .. مسامير في نعش البيئة

تجربة مصرية لاستثمار المخلفات الزراعية

حلوان.. والملف البيئي لثورة يوليو

انتهاكات بيئية على الأراضي الفلسطينية

امتنع عن التنفس.. حتى لا تموت!!

الشعاب المرجانية.. ثروة بلا حماية

في بنجلاديش: شربة الماء بالزرنيخ

بوش: الاحتباس الحراري وهم

سلاحف ماليزيا تواجه خطر الانقراض

حرب عالمية.. ضد الأكياس البلاستيكية

الأرمادا الروسي النووي يلوث كوكبنا

إطعام العالم دون إظمائه.. معادلة صعبة

الفقر والجفاف.. تسببا في جوع العالم

تنقية المياه.. بقشر السمك والجمبري

مصر.. العشوائية تغتال البيئة

حقول الموت تحصد العراقيين

الفلبين.. الشعاب المرجانية تطعم فقراء العالم

الكاميرون: كنوزنا البيئية.. تمدرها أيدينا

البيئة.. قربان على مذبح الحرب

البحر الميت.. من قتله؟!

بدون مياه.. لا مستقبل!!

محاور الخطر في قمة الأرض الثانية

واشنطن: الإعدام لقمة جوهانسبرج

النوبان الكبير.. مستقبل الكرة الأرضية في خطر

أفريقيا تتفوق.. في التصحر

يوم البيئة والعناد الأمريكي

العالم.. ينقرض من حولك

العالم يقول: وداعاً للسيارات!

ظاهرة الاحتباس الحراري بين الحقيقة والوهم
النوافذ المبتلة بديل المكيفات!!
شجرة النِّيم..مبيد حشري نظيف!!
تصميم أكبر حائط شمسيّ في العالم
حتى لا تتكرر ظاهرة السحب السوداء
جهاز جديد يقول وداعا للمداخن
يوم الأرض ٢٠٠٠
غضب الفيضانات
إعادة التدوير ليس حلا سحريا
مثال لعمران إنساني أخضر
إنه عالم ملوث
تلوث البيئة.. "قلة تربية"

إعادة التدوير.. حيث تلتقي البيئة مع الاقتصاد
الاحتباس الحراري.. قنبلة موقوتة
حتى لا ننسى.. فلسطين الجميلة
مادة البقاء كتاب يقيك من تلوث الهواء
"ضانا" محمية تبيض ذهبا
الزئبق السم الزعاف
كومة الرمل لا تجد قطرة ماء
الزلازل في وداع القرن العشرين
التصحر الخطر المحدق بالبشرية
حذار من الأسبستوس
أمريكا في انتظار الكوارث الست

- **فقه مظاهر الورطة البيئية واقعاً**

بشكل عام يمكن الحديث في هذا السياق عن مظاهر تتعلق بالتغير السلبي في مكونات البيئة وهو ما يسمى بالتلوث أو الإفساد، كتلوث الهواء والماء وغيرها. كما يمكن الحديث عن زيادة أحد أو عدد من مكونات البيئة عن الحد المطلوب كما هو الحال في معدل ذوبان الثلوج في القطبين عن الحد الطبيعي، ومن جهة أخرى يمكن الحديث عن نقصان أحد أو عدد من مكونات البيئة عن الحد المطلوب كما هو الحال في نقص المياة الشديد ومن ثم التصحر في مناطق كثيرة من أفريقيا وآسيا. كما يمكننا الحديث عن الورطات الجامعة لأكثر من إفساد أو زيادة أو نقصان مثل ورطة الاحتباس الحراري أو الورطات المتمثلة في اختفاء أنظمة بيئية بأكملها كاختفاء بحر آران في قازاخستان والأهوار بالعراق. سيلاحظ القارئ أننا بتصنيفنا للمظاهر قد تطرقنا بوعي أو دونه إلى الأسباب، إلا إن تلك الأسباب تظل في درجة سطيحة من عملية التسبيب التي يتطلب الفقه مستوى أعمق منها وصولاً للأبعاد الإنسانية المرتبطة بالتصور الكوني والاتجاهات السلوكية والثقافية الواقفة خلف هذه الورطة. على أي حال، استقراء مظاهر الورطة

البيئية الحالية من خلال النقاط التالية، مع طرف من المظاهر التي يمكن للقارئ أن يرجع إليها في هذا الشأن

- مظاهر تتعلق بالتلوث (تلوث الماء بالزرنيخ والكلور وناقلات البترول وغيرها)
- مظاهر تتعلق بالزيادة عن الحد المطلوب (ذوبان الثليج في القطبين، الفيضانات، تآكل الشطآن..إلخ)
- مظاهر تتعلق بالنقصان عن الحد المطلوب (المجاعات، العطش العام،... إلخ)
- مظاهر لورطات جامعة:
  - الاحتباس الحراري (ناتج عن تلوث الهواء، الجور في قطع الأشجار، ويؤدي لارتفاع درجة حرارة الأرض مع ذوبان الثلوج فالفيضانات... إلخ)
  - مجتمعات النفايات (ناتج عن التلوثات في الهواء والماء والأرض وغيرها)
  - اختفاء نظم حيوية كاملة (الأهوار، آران)

٢,١,٢. فقه الورطة البيئية تسبيباً

ساستميح القارئ عذراً لأنني سأبدأ من مصادرة رئيسة في هذا الجزء ستعتمد عليها محاولاتي التالية من اختيار المصادر التي أعتمدها في تفسير الورطة البيئية الحالية تفسيراً يتجاوز التمظهرات والمسببات السطحية سابراً لغور المعرفي والنمطي السلوكي الثقافي. هذه المصادرة الرئيسة هي أن الورطة البيئية الحالية ترجع في الجانب الأعم منها إلى المجتمع الغربي واعتداءاته على البيئة منذ انطلاق الثورة الصناعية في القرنين الثامن والتاسع عشر لليلاديين[٢٠]. ومن ثم إذا كان لنا أن نتفهم أسباب الورطة البيئية الحالية تفهماً لا يزيحنا عن جوهرها، فإن علينا أن نتفهم بشكل عميق التركيبة الحضارية الغربية معرفياً وسلوكياً تلك التي أفضت للواقع الحالي. أرجو ألا يكون كلامي هذا اعتذارياً للمسلمين الإندونيسيين المتورطين في قطع الغابات بشكل بشع أو

---

[٢٠] جان ماري بيلت (١٩٩٤)، السيد محمد عثمان (مترجم)، عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ص: ١٥-١٦

هؤلاء المصريين الذين قضوا على منطقة حلوان بيئياً بعد أن كانت منتجعاً ومحكى في روايات العصر الملكي. فالكاتب ينظر إلى هؤلاء وأولئك كحلقة تم استيعابها تماماً في القيم الحضارية الغالبة (النازعة نحو النمو المستمر، والاستهلاك المستمر، والمخدوعة بالكم، والمنصرفة عن والناسية للرب)، وهي قيم غربية أساساً. مرة أخرى، فأنا لا أنزع عن هؤلاء وأولئك مسؤولياتهم الفردية والجماعية عما يقومون به. إنما أحاول في سياق "تفقه" الورطة الحالية أن أصل إلى البعد المعرفي والنمطي الثقافي وهو بعد، ولا شك، يتجاوز الحوادث الفردية والآنية، ضارباً بجذوره في اللحظات الأولى التي انطلقت فيها الحضارة الراهنة وانكفاء الحضارة الإسلامية، وانزياح العالم نحو نمط غالب يغلب عليه التوجه المادي.

بشكل عام يمكن الحديث عن ثلاثة أسباب للورطة البيئية الحالية تنتمي إلى المتغير المعرفي والنمطي الثقافي للحضارة الراهنة[٢١]. هذه الأسباب تشكل حلقات متداخلة وإن كان يغلب عليها طابع تطوري في الزمان إلى حد كبير. يمكننا الحديث عن ثقافة تنحرف عن الطريق؛ من طريق لا يزال يتمتع ببذور توحيدية تتمثل في المسيحية، من طريق لا زال يحتفظ للإنسان بدور مهيمن مركزي في وسط الكون بإلقاء عبء خلافة الله عليه، من طريق لا زال ينظر للطبيعة على أنها نعمة مسخرة من الله؛ إلى طريق تيتم الإنسان والوفيات المتتابعة: وفاة الله (سبحانه وتعالى عما يصفون علواً كبيراً)، وفاة الإنسان، وأخيراً وفاة الطبيعة. كما يمكننا الحديث عن السبب الثاني المتمثل في توسع يتسارع عبر التحول نحو الاستهلاك والتمتع كهدفين مطلقين، والانخداع بالكم، والسقوط في مجتمع من النفايات، وأخيراً السير وراء وهم استباق قواعد التنظيم الطبيعي. وأخيراً، وصعوداً نحو سطح الأسباب وتمظهرات الورطة البيئية هناك بيئة تنضب من خلال تلوثها، واستهلاك الحيز المكاني المتزايد، والعدوانية على الطبيعة، وازدياد أوقات الفراغ، والسأم الإنساني من فعله ومن الطبيعة التي صارت عبئاً عليه بعد أن أهلكها، وحان الدور الآن لتبادل الأدوار؛ فصار الإنسان في موقف المدافع والمنتظر للعواقب السيئة في لا يقينية يتيمة بعد موسم الوفيات المتتالية التي شهدها في المرحلة السابقة. وفيما يلي سأحاول المرور على كل من الأسباب/المراحل السابقة.

---

[٢١] المرجع السابق، ص: ١٥، ٣١، ٥٥ بتصـــــــرف

١. ثقافة تنحرف عن الطريق (كفرت بأنعم الله)

في كتابه الموسوعي الفذ "موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية"[٢٢] يقدم الدكتور عبد الوهاب المسيري تفسيراً لإحدى الأساطير المؤسسة لما يسمى بالعقل الأداتي في الحضارة الغربية الغالبة الراهنة؛ وهي أسطورة أوديسيوس باعتبار أن الإلياذة والأوديسة هما اللبنة الأسطورية الأساسية للوجدان الغربي. وقد جاء في الأوديسا أن أوديسيوس طلب من بحارته أن يضعوا الشمع في آذانهم حتى لا يسمعوا غناء الحوريات، وهو غناء ينتهي بمن يسمعه إلى الاستسلام لمن ولإغوائهن. وطلب منهم أن يقيدوه إلى "صاري" السفينة وأن يزيدوا تقييده كلما ازداد الغناء. وتنتهي الأسطورة بانتحار الحوريات لأن أوديسيوس سمع غناءهن وعرف سرهن . وتُفسَّر هذه الأسطورة على النحو التالي ١ :ـــ علاقة الإنسان بالطبيعة في الأوديسة هي علاقة صراع وهيمنة وليست علاقة توازن. وأوديسيوس وبحارته هم رمز الإنسان الذي يود الهيمنة على الطبيعة . ٢ ـــ يتم إنجاز هذا الهدف عن طريق إهدار إنسانية الإنسان وتلقائيته، فالبحارة (رمز الطبقة العاملة) يفقدون الصلة تماماً مع الطبيعة، وأوديسيوس (رمز الطبقة الحاكمة) لا يستمع إلى الغناء إلا وهو مقيد إلى الصاري، أي أنه يحلم بالسعادة دون أن يعيشها ويحلم بالطبيعة دون أن يرتبط بها. ٣ـــ لا يَنتُج عن هذا انفصال الإنسان عن الطبيعة وحسب وإنما يَنتُج عنه أيضاً انفصال المثال عن الواقع وانفصال الجزء الإنساني عن الكل الطبيعي، وبذا أصبح الإنسان يعيش بعقله في مواجهة البيئة يحاول استغلالها وحسب دون أن يتفاعل معها، أي أن الإنسان الكلي الحي يموت ليحل محله إنسان اقتصادي إمبريالي ميت، لأنه لا يحوي داخله الجوهر الإنساني المتكامل. ٤- تنتهي الأسطورة بانتحار الحوريات وموت الطبيعة لأنها فقدت سحرها وقدسيتها .

وسواء كان العقل الغربي عقلاً أداتياً أم نقدياً أم ترشيدياً أم "حوسلياً" (وهو اصطلاح صكه الدكتور المسيري في وصفه لنوع من العقل الذي يحول كل شئ إلى وسيلة)، فإن النتيجة كانت واحدة بالنسبة للبيئة كما يذكر جان ماري بيلت: " ومع ذلك فإن معظم معاصرينا يغلتون بدرجة أو بأخرى من أي تأثير تمارسه جماعة أو دعوة منظمة. فالتفاوت بين ما نتلقاه من تعليم وبين الأمر الواقع ومعدل تطور الأفكار والسرعة الفائقة لتتابع الأحداث، يترتب عليها

---

[٢٢] د. عبد الوهاب المسيري (٢٠٠١)، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، المجلد الأول، القاهرة: دار الشروق، تحت مدخلة "العقل الأداتي"

جميعا أن إنسان اليوم لم يعد يعرف :من يكون؟ ولا يدري لماذا يؤمن؟ ولا يكاد يكون لديه من الوقت ما يتيح له التساؤل :من أين أتى؟ وإلى أين يذهب؟ فنحن نعيش زمن حيرة وتردد وتأهب يؤاتي كل ما فيه وقوع تحولات جماعية حاسمة :ولم تلبث تلك التحولات أن وقعت ، إذ تحول الإنسان اليتيم إلى إنسان مستهلك ، واستعيض عن الكاتدرائيات بالمحلات التجارية العملاقة!"

ب. توسع يتسارع (الطغيان وإيثار الحياة الدنيا)

لم يكد الإنسان الغربي يشعر بأنه قد تيتم حتى تحول إلى مستهلك، وتأتي البيئة المادية، ككفيل للأمن من خلال الوفرة والمال، في الوقت المناسب للحلول محل البيئة الروحية التي خذلته فأنكرها، ومن ثم غدا رفع مستوى المعيشة هدف الحياة والتقدم الاقتصادي كبير أصنام العصور الحديثة؛ إنه دوار الاستهلاك وتجميع السلع وطلب اللهو المتعة.. إنها النشوة وترك النفس على هواها. ومن ناحية أخرى أخذ التقدم يتطابق تدريجياً مع النمو الاقتصادي، وبدأ مفهوم التقد الاقتصادي يشكل جزءاً من كل حديث يدور، وعندئذ يشير إلى إنتاج متنام للسلع المادية ومن ثم ارتفاع مستمر لمستوى المعيشة يفترض فيه أن يولد رفاهاً متزايداً ينطوي ضمنياً على الأقل على توفير السعادة للجميع. ومن هنا تأتي المصادرة الأساسية للديمقراطيات الغربية، التي تقضي بأن العدالة الاجتماعية هي الغاية الطبيعية للتوسع الاقتصادي؛ أي أنه كلما زاد إنتاجنا للسلع زادت قدرتنا على توزيعها. ومن هذا المنظور، فإن تحسين مصير أشد الطبقات حرماناً مرهون مباشرة بالنمو الاقتصادي.

إلا إن أزمة البيئة وأزمة الطاقة ولهاث النمو الديمغرافي وتشنجات النمو الاقتصادي تقلب اليوم هذه المعتقدات المطمئنة رأساً على عقب. فقد ولى زمن الطمأنينة القائمة على الإيمان بالتحسن المستمر لأحوال المعيشة، وخلفه زمن الريبة والشك. فبعد بلوغ أوج القوة الاقتصادية انتهى التطور الاجتماعي إلى طريق مسدود: أفلسنا نرى تدهور التوازنات الدقيقة للحياة الاقتصادية الدولية في الوقت نفسه الذي تتدهور فيه التوازنات الإيكولوجية الكبرى لكوكب الأرض؟ وليس من الصعب إثبات أن الضيق الاقتصادي والاضطراب الأخلاقي الراهنين إنما هما نتيجتان طبيعيتان لمفهوم كمي ومادي بحت للتقدم. لقد أدت وتيرة النمو التي تخضع لها اقتصادات البلدان المتقدمة تقنياً منذ قرابة النصف قرن إلى زيادة كبيرة في الاستهلاك. ولكي يزيد الاستهلاك يجب أن تنقص باطراد مدة بقاء ما يستهلك من سلع، سواء بخفض مستوى المواد

المستخدمة إما من حيث الكم أو من حيث الكيف (ترقيق الصفائح المعدنية التي يصنع منها هيكل السيارة مثلاً). هنا أطلق العلامة ألفين توفلر على المجتمعات الغربية المعاصرة لفظة مجتمع النفايات حيث السلع سريعة الزوال.

لقد توصل رينيه دوبوس[٢٣] إلى إثبات أن الأمراض ظواهر حضارية: فأوبئة الطاعون الخطيرة جاءت في أعقاب الحروب الصليبية، ونشأ الدرن في المناجم والمصانع وفي بيوت عمال هذه وتلك أثناء القرن التاسع عشر نتيجة لغياب الهواء والضوء منها. وتراجع الدرن تلقائياً عندما ارتفع مستوى النظافة وتحسنت نوعية الحياة. والمجتمعات الصناعية المعاصرة تتطور في بيئات مثقلة بالمواد الكيميائية: فانتشار السرطان يزداد بمعدل ٣% في السنة إذ تضاعفت عدد حالات الإصابة به منذ سنة ١٩٣٧. ومن جهة أخرى يتيح الارتفاع السريع لمستوى المعيشة إسرافاً في تناول الأطعمة المغذية يزيد من تأثيره إفراط في قلة الحركة وفي عدم ممارسة الرياضة البدنية. وفي هذه الظروف يقصر الجسم "دون حرق" الأغذية فتثقله ويترتب على ذلك الإصابة بتريف المخ والاحتشاء. ومؤدى ذلك أن ظروف المعيشة هي التي يتعين البدء بتغييرها إذا أريد إبعاد شبح المرض، ويعد الكفاح ضد التلوث واحدة من أهم وسائل بلوغ هذه الغاية.

ج. بيئة تفسد وتنضب (ظهور الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس)

بهذه الحلقة تصل المسببات للورطة البيئية الحالية إلى سطحها الملامس لتمظهرات تلك الورطة. لقد كان للوعي البيئي الذي انتفض منذ أوائل سبعينات القرن المنصرم دوراً هائلاً في إدراك حجم الورطة البيئية التي تحياها البشرية اليوم. فكما يلاحظ بحق ج. تيرنسين[٢٤] أن التلوث اليوم لم يعد مجرد أقذار موضعية بل أصبح تدنيساً عاماً للطبيعة من حيث أن آثارها يتسع نطاقها على نحو لا يمكن التنبؤ به أحياناً. إن مبيدات الآفات والمعادن الثقيلة والمنظفات غير القابلة للتحلل البيولوجي تمر كلها عبر محطات التنقية التقليدية دون أن تتأثر بها على الأطلاق ثم تتجه نحو الأنهار والبحار حيث تتسلل شيئاً فشيئاً إلى داخل الكائنات الحية، فهي تتجمع داخل

---

[٢٣] R. Dubos(١٩٦١)., Mirage de La santé, Denoel
في جان ماري بيلت، مرجع سبق ذكره، ص ٦٦

[٢٤] J. Ternissien, Precis general des nuisances, ٦ tomes parus, Paris Guy Le Prat, ١٩٧١ -١٩٧٤
وذلك في المرجع السابق، ص٦٥

البلانكتون حيث تنتقل منها إلى الأسماك التي تتغذى بها والتي تكون لحومها عندئذ شراكاً للسموم. وفي نهاية هذه السلسلة الغذائية يتهدد الخطر الإنسان نفسه

إن هذا التدنيس العام للبيئة يساعد عليه أن إنسان الحضارة الغالبة الراهنة، غالباً، لا يؤمن ومن ثم لا يتعامل إلا مع ما يمسه عن كثب وفي الصميم؛ وهو ما سيمكن الحديث عنه لدى التعرض لفقه الورطة البيئية تحت مسمى قصر النظر الغيبي. إذ كيف للإنسان الذي لا يؤمن بالغيب إن يشعر بالذنب إزاء فعلة لا يرى عواقبها؟ فالجندي الأمريكي ذو القلب الرقيق الذي يتألم إذ فقدت قطته إحدى أسنانها لا يحس بغضاضة عندما يفتح مستودع قاذفة قنابله ليفرغ ما بها من وسائل الدمار للبيئة والبشر العراقيين، بل يفعل ذلك على أنغام الروك الصاخبة.[٢٥] ومن هذا المنظور يبدو للإندونيسي من سكان جاكرتا (والذي تم استيعابه إلى حد كبير في قيم الحضارة الراهنة) طبيعياً أن يودع نفاياته الأثمار متسبباً بسد مصارفها ومن ثم محدثاً الفيضانات كل عام، وهي على الرغم من تكراراها إلا إن الإيمان بالغيب اللازم لردع الملوث عن تلوثه غير متوافر.

إن أهمية التفاعلات بين عالم الجزيئات وبين الكائن البشري بتدو على أنصعها في التقدير القائل إن من ٨٠ إلى ٩٠% من حالات الإصابة بالسرطان إنما تعود إلى البيئة[٢٦]. ونحن نعلم اليوم علم اليقين مسؤولية التدخين وتعاطي المشروبات المسكرة عن نشوء سرطانات التجويف الفمي وجهاز الرئة والشعب الهوائية. ولكن إدراكنا يزداد يوماً بعد يوم لتأثير تلوث الهواء والماء والآثار المسرطنة لجزيئات كثيرة كانت تعد غير ضارة، بحيث يبدو التلوث البيئي أشد إضراراً باطراد الميزان الصحي العالمي، ومن المحتمل أنه يسهم في توقف متوسط الأجل المتوقع عن الزيادة منذ عدد من السنوات. غير أن الجمهور يظل جاهلاً بمشكلاته يواصل الظن بأن الصحة لا سبيل إلى تحسينها إلى بإحداث زيادة كبيرة في وسائل العلاج. والأغرب من هذا أن تتبنى الجهات

---

[٢٥] هذا المشهد هو إحدى مشاهد الفيلم التسجيلي ذي الصيت الذائع والحائز على جائزة مهرجان كان السينمائي لمخرجه مايكل مور: ٩١١ فهرنهيت.

[٢٦] Symposium international sur le cancer (CIRC) (novembre ١٩٧٥), Lyon, ٣- ٥
في جان ماري بيلت، مرجع سبق ذكره، ص ٦٥

الحكومية نفس الاتجاهات المخدوعة بالكم، والمنكبة على وجهها صارفة أنظارها عن الأبعاد البيئية الغيبية لخياراتها السياسية.[٢٧]

ومع اشتداد العدوان على البيئة تتراجع بطريقتها الخاصة وفي صمت وعلى طرفي قدميها، كما يكتب جان ماري بيلت في توصيفه للحالة الفرنسية حين يوضح أن المساحات التي يضحى بها في سبيل عمليات التنظيم الكبرى مساحات هائلة: فتوسيع المدن والمصانع وبناء الطرق والمطارات واستغلال المحاجر تستهلك كل سنة آلاف الهكتارات. فبين سنتي ١٩٦٥ و ١٩٧٠ فقدت المنطقة الباريسية ١٩٠٠ هكتاراً من المساحات الخضراء؛ أي ما يعادل مساحة غابتي بولونيا وفانسين مجتمعتين. ووفقاً للتقديرات يستهلك في فرنسا سنوياً ١٠٠ ألف هكتار في أغراض التصنيع والتنمية الحضرية وإقامة البنى الأساسية الطرقية وغيرها، وذلك تقدير معقول عندما نعلم أن الألف كيلومتر طرق السيارات ثلاثية المسارات تحتاج إلى ١٠ آلاف هكتار. يضاف إلى هذا، ولا زال الكلام لبيلت، التراجع المذهل للحيز المكاني الطبيعي، مزروعاً كان أم مكسواً بالغابات، تراجع آخر ليس من السهل إدراكه على الفور، من جانب الحياة الحيوانية والنباتية. ومع ذلك فالأرقام صارخة، إذ أثبتت دراسات دقيقة أجريت في بلجيكا[٢٨] أنه منذ بداية القرن الحالي يختفي سنوياً من أراضي بلجيكا نوع نباتي فضلاً عن مائتي نوع تفقد ما يربو على ٥٧% من أفرادها. ومن القرن الماضي، اختفى ٤٩ نوعاً نباتياً من أقليم آنجو الفرنسي.

وإذا مررنا بأعيننا على الأرقام التي تتحدث عن البيئة الإندونيسية (كأكبر بيئة إسلامية)، فإن الأرقام ستفزع كل من كان له قلب أو ألقى نظره وهو شهيد. فعدد أجناس الطيور المهددة بالانقراض هو الأكبر في العالم (١٢١ نوعاً) في إندونيسيا[٢٩]، كما تحتل إندونيسيا المرتبة الثالثة لدى الحديث عن أكبر دول العالم التي تتهدد فيها أنواع من الأسماك بالانقراض (٩١ نوعاً)[٣٠]. ثم تعود فتحتل إندونيسيا المرتبة الأولى في عدد أجناس الثدييات المهددة بالانقراض (١٤٦ نوعاً)[٣١]

---

[٢٧] المرجع السابق (بتصرف)، نفس الصفحة

[٢٨] L. Delvosalle, F. Demaret, J. Lambinon et A. Lawalree, Plantes rares, disparues ou menacées de disparition en Belgique, ministére de l'Agriculture, Service de serves naturelles, Tray. ٤, Bruxelles, p. ١٢٩.

[٢٩] في المرجع السابق، ص٧٢

[٣٠] World Conservation Monitoring Centre (WCMC) in Encyclopedia Encarta (٢٠٠٦): Geography – Statistics- Statistical map – Choose Statistic-Environment-Bird species, threatened

[٣١] Fish species, threatened (المرجع السابق)

[٣٢] Mammal species, threatened (المرجع السابق)

والمرتبة الثالثة في عدد أجناس الزواحف المتعرضة للانقراض (٢٨ نوعاً)[٣٢]. وبشكل عام تحتل إندونيسيا المرتبة الرابعة في جملة الأنواع المهددة بالانقراض بعد الإكوادور (٢١٥١ نوعاً، الولايات المتحدة الأمريكية ١١٤٣ نوعاً، ماليزيا ٨٩٢ نوعاً، ثم إندونيسيا ٨٣٣ نوعاً)[٣٣]

. خلاصة حول مظلة/مدخل فقه الورطات البيئية

كي يكتمل امتداد هذه المظلة على رؤوس من يطمحون أن يشتغلوا بفقد البيئة الإسلامي، فإنني أحاول استخلاص النقاط التالية:

أ. ما سبق يتضح لنا أن ما يشهده عالم اليوم من ورطات بيئية سواء على المستوى المحلي أو العالمي تتمظهر غالباً في افتقاد التوازن البيئي، الأمر الذي قد يقضي على بيئات بأكملها في شكله المحلي، ويهدد بخراب كامل للكوكب في شكله العالمي.

ب. أن سبب فقدان هذا التوازن البيئي يكمن في العامل البشري أكثر من أي عامل آخر. وأهم الأخطاء التي يقترفها هذا الفاعل البشري لدى تعامله مع البيئة هي:

- عدم الاهتمام بتقدير التبعات البيئية
- الاهتمام بالأهداف القصيرة المدى
- التفكير بمتغير وحيد

ت. أن المبادئ الحاكمة للبيئة بشكل عام كما يتضح من سلوكها هي:

- الترابط والتكامل العميق
- التوازن والتقدير الدقيق

ث. أن مشروع الفقيه المسلم يمكنه أن يستقرأ هذا الواقع في ضوء الذكر الحكيم من خلال إعادة الاعتبار لمفهومي:

- الميزان
- القدر، وفيما يلي رسم توضيحي للخلاصة المبدئية تلك

(٢) مظلة / مدخل خصائص الفقه الإسلامي

---

[٣٢] Reptile species, threatened (المرجع السابق)
[٣٣] Threatened species (المرجع السابق)

٢,١: إن أي دراسة للبيئة وفقهها من وجهة نظر إسلامية لابد وأن تطلب زادها في معين الخط الطبيعي غير المزيف للفقه الإسلامي منذ نشأته وحتى الآن. لابد للفقية البيئي أن يقف بقدمين راسختين على أرضيتين ليس من الفطنة اعتبارهما منفصلتين. فكما ولابد له من قدم راسخ في واقعه، لابد له من قدم راسخ في دينه. كيف لا وقرآنه يجعل من الكون أمامه كتاباً مفتوحاً؛ يمده بخبر من قبله وخبر من بعده وحكم ما بينه وبين الناس؟ كيف لا وأحاديث رسوله تغذي روحه بالأمل والرجاء في الإصلاح حتى إذا قامت الساعة وفي يده فسيلة فليغرسها؟

من هنا كان لزاماً على أن أفرد مظلتي الفكرية الثانية على شكل أهم خصائص الفقه الإسلامي، والعمل على ربطها بالموضوع الذي نحن بصدده. وسأعتمد هنا بشكل رئيس على العمل الموسوعي الفذ للعلامة الشيخ وهبة الزحيلي[٣٤].

الفقه لغة الفهم، ومنه قوله تعالى: "قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول" وقوله سبحانه: "فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً". والفقه اصطلاحاً: هو الجانب العملي من الشريعة، والشريعة: كل ما شرع الله تعالى لعباده من الأحكام، سواء بالقرآن أم بالسنة، وسواء ما تعلق منها بكيفية الاعتقاد، ونختص بها علم الكلام أو علم التوحيد، أو بكيفية العمل، ويختص بها علم الفقه.

ويمتاز الفقه الإسلامي بعدة مزايا أو خصائص أهمها ما يأتي:

١. *أساسه الوحي الإلهي:* يتميز الفقه عن غيره من القوانين الوضعية بأن مصدره وحي الله تعالى المتمثل في القرآن والسنة النبوية، فكل مجتهد مقيد في استنباطه الأحكام الشرعية بنصوص هذين المصدرين، وما يتفرع عنهما مباشرة، وما ترشد إليه روح الشريعة، ومقاصدها العامة، وقواعدها ومبادئها الكلية، فكان بذلك كامل النشأة، سوي البنية، وطيد الأركان، لاكتمال مبادئه، وإتمام قواعده، وإرساء أصوله في زمن الرسالة وفترة الوحي على النبي (ص)، قال تعالى: "اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً" ولم يبق بعدئذ إلا التطبيق وفق المصالح البشرية التي تنسجم مع مقاصد الشريعة.

---

[٣٤] وهبة الزحيلي (١٩٨٤)، الفقه الإسلامي وأدلته، دمشق: دار الفكر، ، ص ١٥، بتصرف

٢. *شموله كل متطلبات الحياة*: يمتاز الفقه الإسلامي عن القوانين بأنه يتناول علاقات الإنسان الثلاث: علاقته بربه، وعلاقته بنفسه، وعلاقته بمجتمعه، لأنه للدنيا والآخرة، ولأنه دين ودولة، وعام للبشرية وخالد إلى يوم القيامة، فأحكامه كلها تتآزر فيها العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملة، لتحقق – بيقظة الضمير، والشعور بالواجب، ومراقبة الله تعالى في السر والعلن، واحترام الحقوق – غاية الرضا والطمأنينة والإيمان والسعادة والاستقرار، وتنظيم الحياة الخاصة والعامة وإسعاد العالم كله.

ومن أجل تلك الغاية: كانت الأحكام العملية (الفقه) وهي التي تتعلق بما يصدر عن المكلف من أقوال وأفعال وعقود وتصرفات، شاملة نوعين:

ا. أحكام العبادات: من طهارة وصلاة وصيام وحج وزكاة ونذر ويمين، ونحو ذلك مما يقصد به تنظيم علاقة الإنسان بربه. وقد ورد في القرآن عن العبادات بأنواعها نحو ١٤٠ آية.

ب. أحكام المعاملات: من عقود وتصرفات وعقوبات وجنايات وضمانات، وغيرها مما يقصد به تنظيم علاقات الناس بعضهم ببعض، سواء أكانوا أفراداً أم جماعات.

٣. *اتصافه بالصفة الدينية حلاً وحرمة*: يفترق الفقه عن القانون الوضعي في أن كل فعل أو تصرف مدني في المعاملات يتصف بوجود فكرة الحلال والحرام فيه.

٤. *ارتباط الفقه بالأخلاق*: يختلف الفقه عن القانون في تأثره بقواعد الأخلاق، فليس للقانون الوضعي إلا غاية نفعية وهي العمل على حفظ النظام واستقرار المجتمع، وإن أهدرت بعض مبادئ الدين والأخلاق. أما الفقه فيحرص على رعاية الفضيلة والمثل العليا والأخلاق القويمة. فتشريع العبادات من أجل تطهير النفس وتزكيتها وإبعادها عن المنكرات، وتحريم الربا بقصد بث روح التعاون والتعاطف بين الناس وحماية المحتاجين من جشع أصحاب المال... وهكذا.

إن تآزر الدين والخلق مع التعامل يحقق صلاح الفرد والمجتمع، وسعادتهما معاً. وتهيأ سبيل الخلود في النعمى في الآخرة. وبذلك تكون غاية الفقه هي خير الإنسان لاحقاً في الحال والمآل. ثم ان التأثر بالخلق يجعل الفقه أكثر تمثلاً وأشد احتراماً وطاعة، أما القوانين فيكثر الإفلات من سلطانها.

٥. *الجزاء على المخالفة دنيوي وأخروي*: يمتاز الفقه عن القانون بأن لديه نوعين من الجزاء على المخالفات: الدنيوي من عقوبات مقدرة (الحدود) وغير مقدرة (التعازير)، على الأعمال الظاهرة

للناس، والجزاء الأخروي على أعمال القلوب غير الظاهرة للناس، كالحقد والحسد وقصد الإضرار بالآخرين إذا اتخذ مظهراً إيجابياً، وعلى الأعمال الظاهرة التي لم يعاقب عليها في الدنيا، إما بسبب أهمال عقوبتها، كتعطيل الحدود اليوم في أغلب الدول الإسلامية أو لعدم إثباتها في الظاهر أو لعدم اطلاع السلطة عليها.

٦. *النزعة في الفقه جماعية:* أي أن فيه مراعاة لمصلحة الفرد والجماعة معاً، دون أن تطغى واحدة على الأخرى، ومع ذلك تقدم مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد عند تعارض المصلحتين، كما أنه عند تعارض مصلحة شخصين تقدم مصلحة من يصيبه أكبر الضررين، تطبيقاً لقاعدة "لا ضرر ولا ضرار" و "يدفع أكبر الضررين بالأخف منهما".

٧. *الفقه صالح للبقاء والتطبيق الدائم:* إن فقه المبادئ الخالدة لا يتغير كالتراضي في العقود وضمان الضرر وغيرها. أما الفقه المبني على القياس ومراعاة المصالح والأعراف فيقبل التغير والتطور بحسب الحاجات الزمنية وخير البشرية والبيئات المختلفة زماناً ومكاناً، مادام الحكم في نطاق مقاصد الشريعة وأصولها الصحيحة، وذلك في دائرة المعاملات لا في العقائد والعبادات، وهذا هو المراد بقاعدة "تتغير الأحكام بتغير الأزمان".

٨. *إن العمل بالفقه واجب إلزامي:* لأن المجتهد يجب عليه أن يعمل بما أداه إليه اجتهاده، وهو بالنسبة إليه حكم الله تعالى. وعلى غير المجتهد أن يعمل بفتوى المجتهد، إذ ليس أمامه طريق آخر لمعرفة الحكم الشرعي سوى الاستفتاء.

٩. *إن سبيل العودة إلى العمل بالفقه هو تقنينه* أي صياغته في مواد مبسطة بيسيراً لرجوع القضاة إليه وتوحيداً لاحكامهم وتسهيلاً لأمر المتقاضين بمعرفة الحكم الذي يتقاضى على أساسه. ويتم ذلك بواسطة لجنة من علماء المذاهب لانتقاء الحكم من أي مذهب بحسب ما يرى من المصلحة، ويكون عمل اللجنة جاداً وسريعاً، حتى إذا ما انتهت من أعمالها أصدر الحاكم — وهنا العقدة — أمراً باعتماد القانون المستمد من الفقه، تجاوباً مع تطلعات الناس بالرجوع إلى الشريعة وفقه القرآن والسنة، وفي ذلك راحة للنفوس، وطمأنينة للقلوب تزول بها تلك الازدواجية بين الدين والحياة والأنظمة السائدة.

ثالثاً: فرص وتحديات خطاب فقهي بيئي إسلامي

سأحاول من خلال النقاط التالية أن ألتقط بعض الدلالات من حديثنا السابق وحديث الشيخ الزحيلي وأسلط أضواءها على موضوعنا الحالي (فقه البيئة). فإذا أردنا صياغة تعريف الفقه بلغة معاصرة، فلعلنا نكتب أنه: "معرفة ما يجب أن يكون عليه التصرف الأمثل في الحوادث والأحوال التي تعرض للمسلم. على أن تكون تلك المعرفة مستقاة من القرآن والسنة. لكننا نجد أن التعريف المعتمد لا يتطرق لمعرفة "موضوع الحكم" أو ما يشار إليه حديثاً ب "فقه الواقع". لكننا قد نتساءل هل يمكن أن تكون معرفة الحوادث شيئاً مفروغاً منه سابق على معرفة حكمها. أو قد نتساءل لماذا اختصر الفهم إلى فهم الأحكام؟ لماذا لم يسلط الضوء على "فهم الظاهرة". ثم نعيد الكرة مرة أخرى: هل كان هذا مفهوم ضمناً؟

أدعي أن الأولين لم يكن هناك من يباريهم في مقدراتهم اللغوية، ولذا فحين أطلقوا اسم الفقه على ما يطلق عليه عادة "القانون"، إنما قصدوا وغلبوا صفة في منشئه وهي "الفهم" على ما دونها كالصياغة اللغوية وغيرها. الآن يتبقى السؤال: إلى أين يتوجه الفهم؟ أإلى النص فقط؟ أم إلى النص والواقع معاً؟ إنني لأذهب إلى أن الأولين لم يكن حاضراً في أذهانهم التساؤل عن هل يجب فقه الواقع أم لا. لعلهم كانوا سيعتبرون هذا سوفسطائية. وهذا يتضح من إحاطة فقهائهم بشؤون الناس واستفاضتهم شروحهم في تغطية تفاصيلها واطلاعهم الواسع على ثقافة عصرهم. إذن، ولو كان الهدف النهائي من الفقه هو "إعادة صياغة الواقع ليتماشى مع القرآن الكريم والسنة الشريفة وفق أحكام قانونية أو تنظيمية أساساً، إلا إن تسمية هذا العلم تدل على غلبة عنصر "الفهم" عليه لا عنصر "الصياغة القانونية" أو عنصر "المرافعة" أو عنصر "التحكم" في الناس". كما يتضح أن الفهم هذا موجه إلى عنصرين هامين هما الواقع والقرآن الكريم والسنة النبوية قولاً وعملاً.

إذن، فقه البيئة يستلزم أن يقف الفقيه على قدمين في أرضيتين راسختين؛ أحداها في أرضية القرآن والسنة النبوية الراسخة المحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك ولا يرغب عنها إلا من سفه نفسه، والأخرى في واقعه يعلمه علماً من أدلته التفصيلية أيضاً، ودون هذا لا ينبغي للفقية أن يسمى بهذا الاسم. وإذا تابع الفقيه غرس قدميه في كلا الأرضيتين، فسيعرف أن طبيعة موضوع البيئة في كلا الأرضيتين هو موضوع جامع لأغلب مسائل الدين الاعتقادية والعملية.

ومن ثم فإن ثمة مقولات سأدفع بها في هذا المقام تمثل بعضها تحديات، على حين تمثل الأخرى فرص للفقية البيئي المسلم المعاصر.

١,٣. تحديات وفرص الخطاب البيئي الإسلامي

- تحدي الموضوع: الموضوع-جامع يستلزم جهداً إضافياً في "فقهه". كما يستعصي على واحد فقط. إنه يتطلب جهداً جماعياً: تثقيف الفقيه بيئياً وتثقيف البيئي فقهياً. إنه يمنح فرصة إحياء التعاون وفرصة بناء الشخصيات المتكاملة في مجتمعات المسلمين وإصلاح ذات البين بين العالم الديني والدنيوي.
- الطبيعة الجامعة للموضوع قد تعيد تعريف الفقيه البيئي ليجد نفسه في موضع الفقيه الموسوعي الذي لا يتوقف عن حد، وليعيد بذلك فرصة نهضة كبرى للفقه الإسلامي، بل يعيد إلى الأذهان صوراً كالغزالي وابن حيان والبيروني وغيرهم.
- تحدي الخطاب الفقهي حول الموضوع، كيف يمكن إنتاج خطاب بيئي فقهي تفسيري تحليلي غير قانوني فقط أو تعبوي فقط أو أخلاقي فقط. إنه يمنح فرصة إجهاض الخطابات غير ذات الدلالة الأخرى.
- تحدي الطلبات الأولى: الطلب الأوليّ: هو اصطلاح مأخوذ من علم الاقتصاد ويعنى أن ثمة سلع لا يمكن تسويقها قبل تسويق أخرى سابقة عليها؛ كمن يريد أن يبيع رابطة عنق في مجتمع تقليدي لا يرتدي الجاكيت؛ عليه أن يسوق الجاكيت أولاً ليبيع رابطة العنق! وفي سياقنا الحالي يمكن أن نتساءل: لمن يجتهد الفقيه البيئي؟ فغربة الإسلام اليوم في أغلب المجتمعات الإسلامية، فضلاً عن غياب السلطة من أيدي الفقيه، يقفان عائقاً دون تسويق منهج للتعامل مع البيئة يقف على أرضية إسلامية . لكن هذا الواقع من جهة أخرى يمنح فرصة لإعادة اكتشاف الإسلام مرة أخرى.
- تحدي الحركة الفقهية البيئية، سيدفع التحدي ٣ إلى حتمية الحركة إلى جانب طلب الأحكام من أدلتها التفصيلية وفقه الواقع البيئي. هذه الحركة لا بد وأن تتأتى على مستويات لا بد من تحليل أولوياتها استراتيجياً. لكن هذا التحدي يمنح فرصة تجميع الآراء الإسلامية المتناصرة وفرزها عن تلك التي لا ترى في الإسلام اقتراباً شاملاً للحياة.

- تحدي المنتج النهائي؟ أهي أحكام قضائية؟ أهي فتاوى؟ أهي أبحاث؟ أم هي "حركة اجتماعية"؟
- تحدي التعامل مع البدن القانوني الحالي الأممي والمحلي المتعامل مع البيئة [تحدي التوظيف من جانب الحكومة، وهو الخطاب الغالب حتى الآن. هل سيكتفي الفقيه البيئي بذلك الدور؟]

نحو خطاب إسلامي بيئي

الطريف والبديع الذي اكتشفته حين مراجعتي لكتاب الله وسنة نبيه أن تلك الطبيعة الجامعة لموضوع البيئة لا تتجلى فقط عند نظرنا لواقعنا (فقه الواقع البيئي)، بل هي بنية كامنة في العرض القرآني لقضية البيئة. إن البيئة في القرآن وقضيتها لم تعرض بشكل مجتزأ أو بشكل يستقطبها عن الإنسان. ففي كل مناسبة (على حد علمنا) لا تقف الطبيعة الجامعة للبيئة عند حدود الحياة الدنيا (من اتزان وترابط وتحقيق منافع الخلق)، بل تتعداها إلى الحياة الآخرة، حيث يرجى أن تلعب تلك البيئة بما حوته من إبداع ورحمانية واتزان الدور اللازم في حفز واستثارة الفطرة الربانية داخل الإنسان ليسلك – على الأقل– على نفس الدرجة من الاتزان والرحمانية والانضباط، ولا يقف الأمر عند ذلك، بل يتعداه إلى أن تكون هذه البيئة وفقهها على هذا النحو قامعاً له دون الكفر. وغالباً ما يشد موضوع البيئة (بما يجمعه من قضايا) إلى أصل وموضوع جامع آخر هو المعاد والعبودية. ومن ثم ينبغي على الفقيه المسلم أن يؤسس خطاباً بيئياً معاصراً على نفس المنحى.

هذا الخطاب الإسلامي ينبغي أن يحوي أيضاً عنصر النقد الحضاري البناء، وهو العنصر الذي يتعامل مع نقد الأصول المعرفية والعملية للحضارة الراهنة التي أدت إلى نتائج بيئية وخيمة، مستثمراً أجواء النقد الحالية لتلك الأصول من جانب لا يستهان به من أهل الحضارة المقصودة. إن مثل ذلك الخطاب، إن أحسنت صياغته، سيعيد بناء أولويات العمل الإسلامي ومن ثم العالمي. فمثل هذا الخطاب يرجى منه أن "يقلب موازين القوى الخطابية" الحالية؛ فيحول الأنظار إلى الأخطار الحقيقية التي تواجه الإنسان، وبالأسباب الحقيقية الواقفة خلفها، رابطاً إياها بالعناصر الأساسية الجوهرية في مسيرة وصيرورة الإنسان. يقصد بقلب موازين القوى الخطابية الحالية أن يزيح هذا الخطاب، على قدر ما يكون متكاملاً، خطابات رثة ركيكة مضطربة مثل

خطاب "الخطر الإرهابي" أو "الخطر الأخضر الإسلامي".. وغيرها. ثم إن هذا الخطاب الإسلامي البيئي لا يقف عند حدوده المعرفية والنقدية، بل يتعداها إلى فتح كوة في النفق المظلم الذي دخلت إليه البشرية، يفتح هذه الكوة بالتبشير برحمانية الخالق، يفتحها بالتبشير بقبوله للتائبين، يفتحها بآية "ظهر الفساد.. لعلهم يرجعون". إنه خطاب جامع.. إنه خطاب توبة. يفتح هذا الخطاب كوة في النفق المظلم راسماً للناس معالم أجواء نقية، معالم ماء طاهر طهور، معالم حياة زكية طيبة. يرسم هذه الأجواء من خلال اقتراحات عملية لا تتوقف عند القوانين الرادعة، بل تتعداها إلى المشروعات المعمرة النافعة. من أجل هذا كان لزاماً على الفقية البيئي المسلم أن يتفقه بيئياً (واقعياً) إلى جانب تفقهه المعرفي الشرعي، وكان لزاماً على البيئي المسلم أن يتفقه شرعياً (فقه القول البيئي/نحو خطاب بيئي إسلامي).

وإذا كان عمل الفقهاء في تراثنا هو التفقه أولاً (العلم) ثم تنزيل ما فقهوه على أرضية الواقع في صورة نظم وإجراءات (القول) يطبقونها أول ما يطبقونها على أنفسهم، ثم يدعون الناس إليها ويطبقونها على الناس إن أتيحت لهم فرصة الوجود في سدة الحكم (العمل). فإن الناظر اليوم إلى واقع المسلمين يجد أن عناصر الفقه الثلاثة (العلم، القول، العمل) غائبة عن أكثر عوالم المسلمين اليوم. فالعلم النافع الشرعي النقي صار بضاعة غير رائجة في معاهدنا ونظمنا. والقول الصائب الحكيم؛ القول الواعظ الحسن؛ القول المجادل بالتي هي أحسن، خلت منه وسائل إعلامنا، بل خلت منه حواراتنا اليومية مع أصدقائنا وعوائلنا. وأما العمل، فحدث ولا حرج، وهو أكثرهم ظهوراً. وإذا كنا قد سبّقنا بالقول بأن مسألة البيئة هي فرصة ذهبية لإعادة ترتيب أوضاع البيت الإنساني وليس فقط المسلم، فإن قولنا هذا، وإن انبنا على علم من الوحي ومن الواقع، إلا إن هذا لا يضمن تحققه بشكل أتوماتيكي. إن قولنا هذا مرهون ب(إن أحسن صياغته) ونضيف إليها هنا "إن أحسن فعله". فالوحي نفسه يتكلم عن استباق الخيرات، كما يتكلم عن الاستبدال في حال التولي. من هنا لزم لنا وضع خطوط عامة ل (فقه العمل البيئي/ فقه الحركة البيئية الإسلامية)؛ فهذا الخطاب يؤسس على: علم بالوحي وعلم بالواقع، وهذا الخطاب يحوي: مكوناً معرفياً من الوحي، مكوناً علمياً من الواقع، وهذا الخطاب ينتج: حركية دفاعية هي الأخرى جامعة نظامية.

خلاصة

تدفع الورقة الحالية بأن موضوع البيئة إذا أريد له أن "يُفقه" إسلامياً فإن أنسب مدخل لمثل هذا الفقه هو "الطبيعة الجامعة" للموضوع. يقصد بالطبيعة الجامعة تلك الطبيعة التي تشد مختلف جوانب الحياة الإنسانية واضعة إياها على مجهر النظر، فالعلم، فالعمل المنضوي تحت استراتيجية موحِّدة. وعلى عكس كثير من التوجهات التشاؤمية السائدة، ترى الورقة في الورطة البيئية الحالية التي يحياها الفقية المسلم الآن "فرصة ذهبية" إن أحسن تفقهها والعمل بموجب هذا التفقه. إن موضوع البيئة يستدعي أوجه الحياة كلها تقريباً؛ فالبيئة كنظام عصي على التفكيك يستدعي ويستجدي حين مناقشته الأخلاق والدين، أنماط الحياة، استراتيجيات النمو الاقتصادي، عادات المأكل والمشرب والملبس، العمارة والبروتوكول وخيارات التصنيع والعلاج. إن هذه الفرصة الذهبية تتمثل من وجهة نظرنا في إعادة ترتيب البيت الإنساني العالمي وفي قلبه البيت المسلم، باستثمار التوافق العالمي حول تلك القضية الجامعة وحول أسبابها. مثل ذلك الاستثمار يكون عبر بناء "خطاب إسلامي بيئي" يؤسس أول ما يؤسس على عنصر معرفي عام مستمد من الوحي وميراث النبوة الذي يوضح مكانة البيئة ومكانة الإنسان منها والقيم والمثل التي تحدد إطار علاقتهما (فقه العلم البيئي).

هذا الخطاب الإسلامي ينبغي أن يحوي أيضاً عنصر النقد الحضاري البناء، وهو العنصر الذي يتعامل مع نقد الأصول المعرفية والعملية للحضارة الراهنة التي أدت إلى نتائج بيئية وخيمة، مستثمراً أجواء النقد الحالية لتلك الأصول من جانب لا يستهان به من أهل الحضارة المقصودة. إن مثل ذلك الخطاب، إن أحسنت صياغته، سيعيد بناء أولويات العمل الإسلامي ومن ثم العالمي. فمثل هذا الخطاب يرجى منه أن "يقلب موازين القوى الخطابية" الحالية؛ فيحول الأنظار إلى الأخطار الحقيقية التي تواجه الإنسان، وبالأسباب الحقيقية الواقفة خلفها، رابطاً إياها بالعناصر الأساسية الجوهرية في مسيرة وصيرورة الإنسان. يقصد بقلب موازين القوى الخطابية الحالية أن يزيح هذا الخطاب، على قدر ما يكون متكاملاً، خطابات رثة ركيكة مضطربة مثل خطاب "الخطر الإرهابي" أو "الخطر الأخضر الإسلامي".. وغيرها. ثم إن هذا الخطاب الإسلامي البيئي لا يقف عند حدوده المعرفية والنقدية، بل يتعداها إلى فتح كوة في النفق المظلم الذي دخلت إليه البشرية، يفتح هذه الكوة بالتبشير برحمانية الخالق، يفتحها بالتبشير بقبوله للتائبين،

يفتحها بآية "ظهر الفساد.. لعلهم يرجعون". إنه خطاب جامع.. إنه خطاب توبة. يفتح هذا الخطاب كوة في النفق المظلم راسماً للناس معالم أجواء نقية، معالم ماء طاهر طهور، معالم حياة زكية طيبة. يرسم هذه الأجواء من خلال اقتراحات عملية لا تتوقف عند القوانين الرادعة، بل تتعداها إلى المشروعات المعمرة النافعة. من أجل هذا كان لزاماً على الفقية البيئي المسلم أن يتفقه بيئياً (واقعياً) إلى جانب تفقهه المعرفي الشرعي، وكان لزاماً على البيئي المسلم أن يتفقه شرعياً (فقه القول البيئي/نحو خطاب بيئي إسلامي).

المراجع

١. القرآن الكريم مع التفسير – الإصدار الثالث – موقع روح الإسلام (www.islamspirit.com)

٢. موسوعة الحديث النبوي الشريف: الصحاح والسنن والمسانيد – الإصدار الثاني – موقع روح الإسلام (www.islamspirit.com)

٣. مكتبة الحديث الشريف وعلومه. موقع أم الكتاب وموقع الدرر السنية في عمل مشترك (dorar@gawab.com & Info@omelketab.net)

٤. جان ماري بيلت (١٩٩٤)، السيد محمد عثمان (مترجم)، عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

٥. حسن عبد الفتاح (٢٠٠٦)، الإسلام وحماية البيئة النباتية، ، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٤٩٣، شهر نوفمبر، الكويت: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية

٦. صفحة البيئة في www.islamonline.net

٧. عبد الوهاب المسيري (٢٠٠١)، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، المجلد الأول، القاهرة: دار الشروق

٨. محمد بن جميل زينو، قطوف من الشمائل المحمدية والأخلاق والآداب الإسلامية. موقع صيد الفوائد. www.saaid.net

٩. محمد الدسوقي(٢٠٠٦)، حماية الشريعة للبيئة في حالة الحرب، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٤٩٣، شهر نوفمبر، الكويت: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية

١٠. محمد الشيرازي (٢٠٠٤)، الفقه (البيئة)، قم: دون دار نشر

١١. د.مصطفى العلواني (٢٠٠٦)، الإسلام والبيئة. مجلة التراث العربي-مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب-دمشق العدد ١٠١ (www.awu-dam.org/trath/١٠١/turath١٠١-٠١٠.htm)

١٢. نادية العوضي (٢٠٠١)، بوش: الاحتباس الحراري وهم. www.islamonline.net

١٣. ----------، يوم البيئة والعناد الأمريكي. www.islamonline.net

١٤. وهبة الزحيلي (١٩٨٤)، الفقه الإسلامي وأدلته، دمشق: دار الفكر

١٥. Encyclopedia Encarata (٢٠٠٦), Microsoft Corporation

١٦. Encyclopedia Britannica (٢٠٠٦)

١٧. Ahmad Khoirul Fata (٢٠٠٦), Ekoteologi dan Fiqih Lingkungan (www.cakfata.multiply. com/journal/item/١١)

١٨. Farooq Hassan (٢٠٠٦), Islam: Environmental Protection, Presidential Address to the Pakistan Ecology Council at the Karachi Hall, Lahore High Court Bar Association, ٦ October, ٢٠٠٦, Lahore (http://www.greaterdemocracy.org/archives/٠٠٠٥٠٧.html)

١٩. www.umy.ac.id/alumni/berita.php?id=٣٧٨ (٢٠٠٦), Peluang dan strategi penanganan lingkungan berbasis agama.